النَّشْرُ
لِفَوَائِدِ سُورَةِ العَصْرِ

وهو تفسير مختصر عظيم الفائدة لسورة العصر

تضمن تنبيهات وفوائد ومسائل لا تكاد توجد في غيره من التفاسير

للعلَّامَــة المجتهد

محمَّد بن علي الشوكانــي رحمه الله

حقَّقهُ وعلَّق عليه

أبو محمَّد عبدُ الله بن أحمد بن لَـمْـح الـخَولانــي

وفقه الله وغفر له

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله المبتدي بحمْد نفسِه قبل أن يحمدَه حامد، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له الرَّب الصمد الواحد، «**الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان**»، أرسل رسوله بالبيان، لما أعطاه من القرآن المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجز الفصحاء معارضته، وأعيت الألبَّاء مناقضته، وأخرسَتْ البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا.

وأشهدُ أن محمَّدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، أشرف إنسان، وأعظم نعمة أنعم بها المنَّان، ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [آل عمران:١٦٤]، صلوات الله وسلامه عليه ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان.

أمَّا بعد:

فقد سمَّى اللهُ نفسه بالعالم، ووصف نفسه بالعلم، وشرَّف به مَن شاء مِن خلقه، فليس كمثل العلم شرفًا وفخرًا، به ميَّز آدمَ على ملائكته كما قال: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:٣١، ٣٢].

وجعَل العلمَ وسيلةً للحياة الأبديَّة، والفوزَ بالسعادة السرمدية، وقرَن العلماء الربانيين، بالملائكة المقربين في الإقرار بربوبيته.

والعلم أشرف ما وُرث عن أشرف موروث، وكفى العلم فضلًا، وحسْبه نُبلا قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لِتَعْلَمُوا﴾ [الطلاق:١٢] فجعل العلمَ غاية ذلك كلِّه.

فليس ثمَّ أحد إلا وهو يحبّ العلم ويُؤثر الاتصاف به، ويكره الجهل وينفر من الاتصاف به، ولا أشنع ولا أقبح بالإنسان مِن إهماله نفسه، وإغفالها عما بهِ سعادتُها مع ما زوّده اللهُ به من القبول للآداب، وتعلُّم العلوم.

واعلم أنَّ أشرفَ العلم وأجلّه : علم القرآن الكريم -كلام الله- تلاوةً وتدبُّرًا، وتفسيرًا واستنباطًا، بل يعتبر ذلك من أجل القُرُبات، وأعظم الطاعات، وبه تحصل أكمل السَّعادات، وتُنال أعظم الراحات.

فإنَّه الطمأنينة في القلب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

وهو روح الحياة الحقيقية، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وأفادت هذه الآية أيضًا: **أنه النور الذي يبدد الظلمات،** وينير للعبد طريقَ الجنة، فإنه مصدر الهداية إلى كلِّ خير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

وكم في القرآن من الفضائل، وكم له من الأوصاف التي تقصر عنها العبارة، ولهذا فإنَّ أشرفَ علوم يتعنَّاها المسلم: علومُ القرآن الكريم.

وأعظمُ علومِ القرآن الكريم فضلًا، وأعلاها قدرًا : عِلمُ التفسير، الذي به تنكشف أسراره، وتظهر معانيه وأحكامه.

وإنما كان **تفسير القرآن الكريم** أشرف العلوم: «لأنَّ صناعة التفسير قد حازت الشَّرف من الجهات الثلاث التي تدلُّ على شرف العُلوم، وهي: الموضوع، والغرض، وشدة الحاجة إليه.

- **أما مِن جهة الموضوع**: فلأنَّ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة.

وأما من جهة الغَرَض: فلأنَّ الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأما من جهة شدَّة الحاجة: فلأنَّ كلَّ كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى»[١].

جهود العلماء في علم التفسير

ولهذا فقد توجَّهت جهود العلماء السَّابقين واللاحقين نحو تفسير القرآن الكريم، وكشف معانيه، واستنباط أحكامه.

وتنوَّعَتْ جهودُهم في ذلك، **فمنْهم** مَن أَلَّف في تفسير القرآن كلِّه سوره وآياته، **ومنهم** من تناوَلَ جميع السُّور غير مستوعِب جميع الآيات، **ومنهم** مَن اقتصر على آياتِ الأحكام، **ومنهم** مَن يقتصر على تفسير سُوَر، أو سُورة بعينها، وربما أفردوا بعضَ الآيات بالتفسير.

وقد ضرَبَ المؤلِّفُ في أكثر ذلك بنصيب وافر، فألَّف في تفسِير القرآن كلِّه تفسيرًا جامعًا بين الرِّواية والدِّراية اسمه: «فتح القدير»[٢]، وألَّف في تفسِير بعض السُّور، ومنْه هذه الرِّسالة التي بين يديك، وكتبَ أبحاثا عدَّة في تفاسير بعض الآيات المخصُوصة[٣].

---

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي (٢/ ٤٠٦).

(٢) وهو مطبُوع متداول.

(٣) فمنها : بحث في قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرَّم﴾ الآية. وبحث في قوله ﴿فلما رأوا بأسَنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآية. وغيرها، انظر: «الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني» قِسْم القرآن وعُلومه.

تفسير سور مخصوصة منفردة

أمَّا التفاسير العامَّة الشاملة لكلِّ القرآن الكريم فكثيرة، ومعلومة، وقد جُمعت عدَّة دراسات حولها، وهي دراسات جيِّدة تكشف عن :

- مناهج المفسرين.
- ومميزات كلّ تفسير، وما يؤخذ على بعضها.
- وتعطي قارئها نظرة عامة عن أكثر التفاسير المشهورة، وغيرها.

وأمَّا عن التفاسير المؤلَّفة في سُور مخصُوصَة:

فهي كثيرةٌ أيضًا، وقد ذكروا منها في «كشف الظنون» و«ذيله» و«هدية العارفين»، وغيرها: عددًا كثيرًا ، يتبيَّن منه اهتمام العلماء والمفسِّرين بهذا الجانب، إلا أنّ كثيرًا مما ذكروا لا أعلمه مطبوعًا، فهي مِن جملة ما فُقد مِن تراث الأمة، وسأذكر هنا نبذة من ذلك، وبعض ما رأيته مطبوعًا[١].

- «تفسير سورة النصر»، و «سورة الإخلاص» لابن رجب الحنبلي[٢].

- «فاتحة الإهاب في تفسير فاتحة الكتاب» للفيروز آبادي، وقد فسَّر هذه السورة عدد، ذكروا منهم: ابن القيم، والسيوطي، والجرجاني، والرازي، والجذامي، والتونوي، وغيرهم[٣].

٤) «تفسير سورة الإخلاص» لعدد من العلماء منهم الرازي، وللسمناني، ولابن الدهان، ولغيرهم.

٥) «تفسير سُورة الإنسان» للعلامة منصور الشيرازي (ت:٩٤٩).

---

(١) وهناك جهود كثيرة عصرية لعدد من العلماء والباحثين، في تفسير سور مخصوصة، وكثير منها مطبوع. ولي بحمد الله رسائل مستقلة مطبوعة في تفسير بعض الآيات.

(٢) مطبوع ضمن «مجموع رسائله» (٢/ ٥١١ ـ ٥٢٤) و (٢/ ٥٢٥).

(٣) «كشف الظنون» (١/ ٤٥٥)، و«ذيل كشف الظنون» (٣٠٦).

٦) «حسن الوصف في تفسير سورة الصف» تأليف: أحمد بن زين العابدين بن محمد بن علي البكري، الصديقي، المصري، الشافعي (ت: ١٠٤٨ هـ)[١].

وتفاسير للسُّور الآتية: «سورة الكوثر»[٢]، «سورة طه»[٣]، «سورة الفتح»[٤]، «سورة القدْر»[٥]، «سورة الكافرون»، «سورة الملك»[٦]، «سورة يوسف»[٧]، «سورة البقرة»[٨]، «سورة الطارق»، «سورة النبأ»[٩]، «سورة الجمعة»، «سورة الكهف»[١٠]، «سورة الواقعة»[١١]، «سورة يس»[١٢].

وبخصوص سُورة العصر:

فقد كتبَ فيها أحدُ الصوفية، وهو عبدالله البوسنوي كتابا أسماه :«سرّ الفيض والنصر في تفسير سورة العصْر»[١٣].

- وأيضًا: محمد بن محمد بن محمد بن حسن الشهير بابن أمير الحاج القاضي

---

(١) «معجم المؤلفين» (١/ ٢٢٩).
(٢) تأليف: محمد بن سعيد الأندلسي الرعيني (ت: ٧٧٩ هـ) «معجم المؤلفين» (١٠/ ٣٧).
(٣) تأليف: علي الأطول الرومي (ت:١٠٩٧ هـ) «معجم المؤلفين» (٧/ ٣٩).
(٤) لجماعة، انظر: «معجم المؤلفين» (٦/ ١٤)، (٦/ ١٢٤)، (٩/ ٨٠).
(٥) لجماعة أيضا، انظر: «معجم المؤلفين» (٢/ ٢٥)، (٦/ ٨٢)، (٨/ ١٩٠)، (١١/ ١٩٣).
(٦) كتب في تفسيرها اثنان، انظر: «معجم المؤلفين» (٤/ ١١٧)، (١٣/ ٢١٥).
(٧) تأليف : أحمد الجابري (ت: ١٠٠٨ هـ) «معجم المؤلفين» (١/ ٢٢٤).
(٨) «معجم المؤلفين» (١٢/ ١٦٤).
(٩) «معجم المؤلفين» (٩/ ٥٢).
(١٠) وللعلامة العثيمين *رحمه الله* تفسير لها مطبوع.
(١١) «معجم المؤلفين» (١٠/ ٢٨٢).
(١٢) «معجم المؤلفين» (٣٧).
وانظر لما تقدم أيضًا: «كشف الظنون» (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥١)، «ذيله» (٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(١٣) كما في «هدية العارفين» (١/ ٢٤٨).

شمس الدين الحنفي (المتوفى سنة ٨٧٩) كتابا سماه «ذخيرة الفقر في تفسير سورة العصر»[١].

- وكتَب فيها العلَّامة تقيُّ الدين الهلالي رحمه الله رسالة صغيرة، إنما رأيتها رُؤية.

وقد كتبتُ رسالةً صغيرة في «أسباب الخسارة وسبل النجاة منها رؤية تحليلية للخسَارة، مفهومها، وأسبابها، وكيف النجاة منها، من خلال سورة العصر»، وأصلها خطبة جمعة ألقيتها مرةً، وقد أردتُ إثباتها في مقدمة هذه الرسالة ثمَّ رأيت أنَّ ذلك يضخِّم من حجمها، فتركت ذلك.

(١) كما في «هدية العارفين» (١/ ٥٦٠)، و«كشف الظنون» (١/ ٨٢٤).

وصف المخطوط

حصلت على المخطوط من دار المخطوطات / صنعاء .

ضمن مجلد يحتوي على رسائل وأبحاث للإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ فقط، وهذا المجلد يمثِّل أحد مجلدات «الفتح الرباني»، ويقع في (٢١٣) صفحة، والمجموع ضمن فئة مجاميع، برقم (٢٩٧٥)، ومعظمه بخطِّ الشوكاني رحمه الله نفسه.

والرسالة تقع في (١٧) ورقة في كلِّ ورقة صفحتان، من صفحة (٥٩) إلى (٧٥) من المجموع السابق.

هذا وقد سبقَ طبْع الرسالة ضمن «الفتح الرباني» لكنها مليئة بالتصحيف والتحريف الذي يغيِّر المعنى، وقد نبَّهت على بعض ذلك في الحاشية وإليه الإشارة بـ: (ط) أو (المطبوع)، وبأدنى مقارنة يظهر الفرق بين النسختين.

مجمل عملي في الرسالة:

جهدت في تصحيح النص، وتنسيقه لإخراجه في صورة مرضيَّة، محلَّى بعلامات الضبط، وخرَّجتُ أحاديثه، ووثَّقْتُ نقولَه، وعلَّقتُ على بعض المواطن بما أراه مناسبًا، مع الحرص الشديد على عدم تضخيم الرسالة، تيسيرًا لاقتناء الرسالة، واكتفاءً بما كتبه المصنف رحمه الله.

نماذج من المخطوط

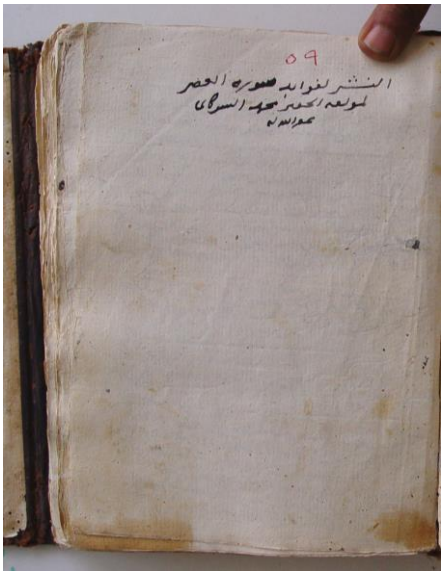

صفحة غلاف الرسالة في المجلد المخطوط

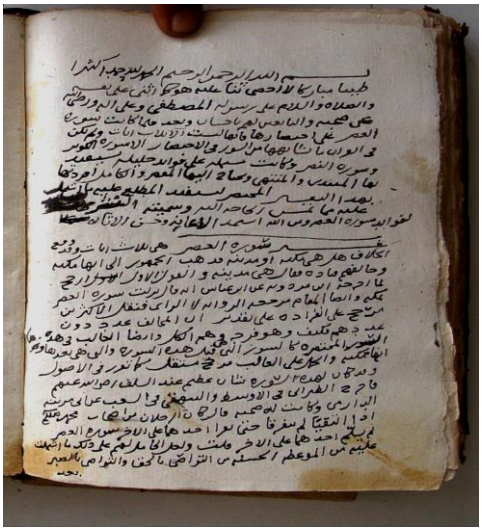

الصفحة الأولى من النشر

الصفحة قبل الأخيرة

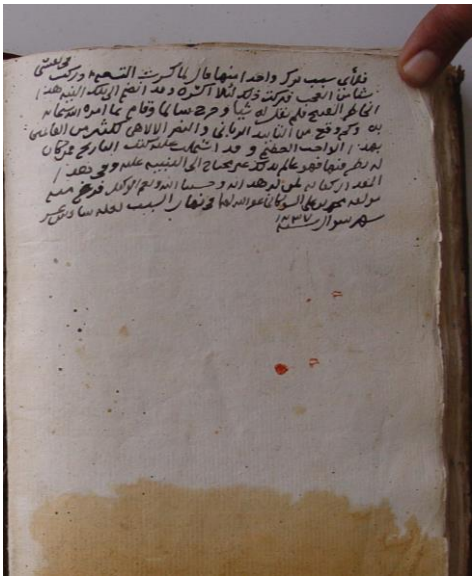

الصفحة الأخيرة

ترجمة موجزة للشوكاني

* هو العلَّامة المجتهد محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني اليماني.

* ولد يوم الإثنين ٢٨/ من شهر ذي القعدة/ سنة ١١٧٣ هـ، في هجرة شوكان.

* نشأ في بيت علم ودين وصيانة، ولم يكن له شغل سوى العلم، وقد كان والده *رحمه الله* يعينه على ذلك.

قال الشوكاني[١] في ترجمة والده *رحمه الله*: «ولقد بلغ معي إلى حدٍّ من البر والشفقة والإعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغًا عظيمًا بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب، فجزاه الله خيرًا وكافاه بالحسنى».

وكان أبوه *رحمه الله* قاضيًا، زاهدًا، متعفِّفا، عالما.

وقد قرأ عليه الشوكانيُّ في صِغره، فإنه قال: «وقرأتُ عليه *رحمه الله* في أيام الصِّغر في «شرح الأزهار» و«شرح الناظري» مع غيري من الطلبة، وهو في آخر أيامه قرأ عليَّ في «صحيح البخاري!»»[٢].

* انتقل مع والده إلى صنعاء، وتلقَّى عن عدد كبير وجم غفير من العلماء، فحفظ القرآن وجوَّده، ثمَّ حفظ جملةً من المختصرات في فنون متعددة ، وأخذ من كل فنٍّ بنصيب وافر.

* اشتهر بقوة الحافظية، وفرط الذكاء، وسرعة الفهم، مع الهمة العالية في التحصيل، والمحافظة على الوقت، ولذلك برَّز في مدة قصيرة، وفاق الأقران.

---

(١) «البدر الطالع» (١/ ٣٣١) ترجمة والده، ط:دار الكتب.

(٢) المرجع السابق .

قال عن نفسه بعد أن سرد مسموعاته[١] : «وقد درّس في جميع ما تقدم ذِكْره، وأخذَه عنه الطلبة، وتكرَّر أخذُهم عنه في كل يوم من تلك الكتب، وكثيرًا ما كان يقرأ على مشايخه فإذا فرغَ من كتاب قراءةً؛ أخذهُ عنه تلامذتُه بل ربما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغَ من قراءة الكتاب على شيخه!، وكان يبلغ دروسه في اليوم والليلة إلى نحو ثلاثة عشر درسًا! منها ما يأخذه عن مشايخه ومنها ما يأخذه عنه تلامذته».

* ثم اشتغل بالإقراء والتدريس والإفتاء وهو في سنٍّ مبكِّر.

قال عن نفسه[٢]: «ثم فرَّغ نفسه لإفادة الطلبة فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادة على عشرة دروس في فنون متعددة، واجتمع منها في بعض الأوقات: التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض، وكان في أيام قراءته على الشُّيوخ وإقرائه لتلامذته يُفتي أهل مدينة صنعاء، بل ومَن وفد إليها، بل ترد عليه الفتاوى من الدِّيار التهامية، وشيوخه إذ ذاك أحياء، وكادت الفتيا تدور عليه من عوامّ الناس وخواصتهم، واستمرَّ يُفتي من نحو العشرين من عُمره فما بعد ذلك».

وقد تولى القضاء وعمره نيّف وثلاثون، واعتبر تقلُّده ذلك المنصب ابتلاءً، لكنه رأى المصلحة تقتضي ذلك، كما ذكره نفسه.

* اشتغل بالتصنيف والتأليف، فأثرى المكتبةَ الإسلامية بمئات المؤلَّفات، بين مطوَّل ومختصر، ومبحث ورسالة، والعجب أنَّ ذلك في وقت قصير، وتلك بركة من الله تعالى وضعها له في وقته، ودليل على تمكُّن هذا العَلَم من العِلْم.

قال -بعد أنْ سردَ كثيرًا من مؤلَّفاته- :«وقد يعقب هذه المصنفات مصنفات

(١) «البدر الطالع» (٢/ ١٠٨).

(٢) السابق (٢/ ١٠٩).

كثيرة يطول تعدادها ... وقد كان تصنيف ما تقدَّم تحريره قبل أن يبلغ صاحب الترجمة -يعني نفسه- أربعين سنة، بل درَّس في «شرحه للمنتقى»[١] قبل ذلك.

* «وترك التقليد واجتهد رأيه اجتهادًا مطلقًا غير مقيِّد وهو قبل الثلاثين وكان منجمعًا عن بني الدُّنيا لم يقف بباب أمير ولا قاض ولا صحب أحدًا من أهل الدُّنيا ولا خضع لمطلب من مطالبها بل كان مشتغلًا في جميع أوقاته بالعلم دَرسًا وتدريسًا وإفتاء وتصنيفا عائشًا في كنَف والده رحمه الله راغبًا في مجالسةِ أهل العلم والأدب وملاقاتهم والاستفادة منهم وإفادتهم، وربما قال الشعر إذا دعت لذلك حاجة كجواب ما يكتبُه إليه بعض الشعراء من سوال أو مطارحة أدبية أو نحو ذلك»[٢].

* من أشهر مؤلفاته : «نيل الأوطار» ، «السيل الجرار» ، «فتح القدير» ، «البدر الطالع» ، «أدب الطلب» ، «إرشاد الفحول» ، وقد طبع مؤخرًا «الفتح الرباني» ولم يحوِ جميع أبحاثه ورسائله، على أنه قد فقد منها عدد غير يسير.

* توفي رحمه الله في جمادى الآخرة / سنة ١٢٥٠ هـ، عن (٧٦) سنة [٣].

---

(١) يعني : «نيل الأوطار»

(٢) «البدر الطالع» (٢/ ١١٠).

(٣) قد أفردت حياة الشوكاني ومؤلفاته وآراؤه بمؤلفات منفردة، منها: «حياة الإمام الشوكاني» لمحمد بن حسن الذماري. وطبع أكثر من خمس رسائل جامعية بين ماجستير ودكتوراه، كل منها في مجلد مستقل، فمنها: «الإمام الشوكاني مفسِّرا» الغماري (دكتوراة)، «الشوكاني المفسِّر» الذيب (دكتوراه)، «الإمام الشوكاني حياته وفكره» الشِّرجي (دكتوراه)، «منهج الإمام الشوكاني في العقيدة» عبد الله نومسوك (دكتوراه)، وله تراجم مضمنة كثيرة، أهمها في «البدر الطالع» (١/ ١٠٦) دار الكتب.

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المصنف]

الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا لا أحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله ورضِي الله عن صحبه والتابعين لهم بإحسان.

وبعـدُ:

فلما كانت (**سورة العصر**) على اختصارها -فإنها ليست إلا ثلاث آيات- ولم يكن في القرآن ما يشابهها من السُّور في الاختصار إلا (سورة الكوثر) و(سورة النصر).

وكانت مشتملة على فوائد جليلة يستفيد بها المبتدئ والمنتهي، ويحتاج إليها المقصّر والكامل، أفردتها بهذا التفسير المختصَر، ليستفيد المطّلع عليه: ما اشتمل عليه مما تمس الحاجة إليه وسمّيته: «**النشر لفوائد سورة العصر**» ومن الله استمد الإعانة، وحسن الإثابة.

تفسير سورة العصر

[عدد آياتها، وهل هي مكية أو مدنية]

هي ثلاث آيات.

وقد وقع الخلاف **هل هي مكيَّة أو مدنيَّة؟**

فذهب الجمهور إلى أنها مكيَّة. وخالفهم قتادة فقال: هي مدنية[١].

والقول الأول أرجح، لما أخرجه ابن مردويه[٢] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (نزلت سورة العصر بمكة). وأيضًا: المقام مرجعُه الرواية لا الرأي، فنقلُ الأكثرين مرجَّح على انفراده على تقدير أنَّ المخالِف عدد دون عددهم، فكيف وهو فرد! وهمُ الكل!.

وأيضًا : الغالب[٣] في هذه السور المختصرة -كالسُّور التي هي قبل هذه السورة، والتي هي بعدها- أنها مكية، والحمْل على الغالب مرجِّح مستقل كما تقرر في «الأصول».

[تعظيم السَّلف لهذه السورة]

وقد كان لهذه السُّورة شأنٌ عظيم عند السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط»[٤]، والبيهقي في «الشعب»[٥] عن أبي مدينة الدارمي -وكانت له

---

(١) حكاه عنه أبو الحسن الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٣٣)، وغيره، وحكاه أيضا رواية عن ابن عباس، وعزا القول بمدنيتها ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٣١٦) إلى مقاتل.

(٢) كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٦١٤).

(٣) ساقطة من المطبوع!.

(٤) (٥/ ٢١٥/ ٥١٢٤)، من طريق عبيد الله بن عائشة.

(٥) (١١/ ٣٤٨/ (٨٦٣٩) ط:الرشد، من طريق يحيى بن بكير.

كلاهما (عبيد الله و يحيى) عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي مدينة ... به.

=

صحبة- قال: (كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التَقَيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سُورة العصْر، ثمَّ يسلِّم أحدُهما على الآخر)[١].

قلت: ولعل الحامل لهمْ على ذلك ما اشتملتْ عليه من الموعظة الحسنة من التواصي بالحق والتواصي بالصبر/ ١ :أ/ بعد الحكم على هذا[٢] النوع الإنساني[٣] حكمًا مؤكّدًا بأنه في خُسْر، فإنَّ ذلك مما ترجفُ له القلوب، وتقشعرُّ عنده الجلود، وتقِفُّ لديه الشُّعور، وكأنَّ كلّ واحد من المتلاقِيَين يقول لصاحبه: أنا وأنت وسائر أبناء جنْسِنا وأهل جلدتنا خاسِرٌ لا محالة! إلا أنْ يتخلَّص عن هذه الرزيَّة، وينجو بنفسه عن هذه البلية : **بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق وبالصبر**.

فيحمله الخوف الممزوج بالرجاء على فتح أسباب النجاء، وقرع أبواب الالتجاء.

قال الطبراني: قال علي بن المديني: اسم أبي مدينة عبدالله بن حصن، قال: ولا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرَّد به حماد بن سلمة. قلت: **سند الأثر صحيح، رجاله ثقات،** لكن قال البيهقي عقبه: رواه غيره ـ أي غير يحيى بن أبي بكير ـ عن حماد عن ثابت عن عقبة بن عبد الغافر..به. وابن عبد الغافر هذا لم أعرفْه، وهذا الكلام من البيهقي يشير إلى إعلاله، لكن ابن أبي كثير متابَع، كما ترى، ومتابعهُ ثقةٌ، وأيضًا فقد تابعهما على هذا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة ... به، أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٧١/ ٤١١) قال : ثنا موسى ... به.

وأبو مدينة : ترجمته في «الإصابة» (٤/ ٤٣ـ٥٤)، وأسند حديثَه هذا ابنُ الأثير من طريق الطبراني في «أسد الغابة» (٣/ ٢١٦)، وعمدتُهم في إثبات صحبته على ما جاء في سند الطبراني الصحيح من التصريح بصحبته. وانظر «تعجيل المنفعة» (١/ ٧٣٣)، و«الصحيحة» (٢٦٤٨).

(١) وانظر «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤١).

(٢) في ط: هذه!.

(٣) في ط: الإنسان!.

فإن قلت: كيف وقعَ منهم تخصيص هذه السُّورة بهذه المزية دون غيرها من السور المختصرة ؟.

قلت: وجه ذلك ما قدَّمنا من اشتمالها على ما اشتملت عليه ترهيبًا وترغيبًا، وتحذيرًا وتبشيرًا، وإنذارًا وإعذاراً، بخلاف غيرها من السُّور، فإنك تجدها غير مشتملة على ما اشتملت عليه هذه [السُّورة].

انظر إلى السُّورة التي قبلها؛ فإنها خاصة بالتهديد والتشديد على مَن ألهاهم التكاثُر، وانظر إلى السُّورة التي بعدها، فإنها مختصَّة بالوعيد العظيم، والترهيب الأليم للهُمَزةِ اللُّمَزَة، وهكذا سائر هذه السُّور المختصرة، مع قِيام كلّ واحدة في بابها مقامًا يعجزُ عنه البشر.

غيرَ أنها لم تكنْ كهذه السُّورة في ذلك الحكم العام بذلك الأمر الشديد المشتمل على أبلغ تهديد، مع أكمل توكيد، **ثم تعليق النجاة منه بذلك الأمر الذي هو لبُّ اللباب، وغاية طلبات أولي الألباب**.

وبالجملة : فهو حكم بالهلاك على كلِّ فرْدٍ من أفراد النوع، إلا إذا لاحظَهُ التوفيقُ بسُلوك تلك الطريق، وسَلم من آفات التعْويق.

وسيأتيك -إن شاء الله- من البيان لهذا الشأن ما هو أعظم برهان.

فإن قلت: هل يحسُن منا عند الالتقاء الاقتداء بذلك السَّلف الصالح ؟.

قلت: نعم وإن لم يدلّ عليه دليل يخصُّه من المرفوع، لكن قد وردَ في عمومات الكتاب والسنَّة ما يدلُّ على أنه ينبغي لكلِّ فرد من المسلمين أن يدعوَ أخاه إلى أسباب الهداية، ويزجره عن ذرائع الغواية، ويعظه بمواعظ الله سبحانه.

فإنَّ ذلك من النصيحة التي يقول رسول الله ﷺ فيها: «**الدين النصيحة**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، عن أبي رقية تميم بن أوس رضي الله عنه.

وقد تواترت الأدلة المرشدة إلى المناصحة.

وأيضًا : ذلك يندرج تحت عِمادَي هذا الدِّين، اللذَين تُبنَى عليهما قناطِرُه، وترجع إليهما أوائِلُه وأواخِرُه، وهما: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، إذا وجدنا/ ١ :ب/ لذلك موضعًا، ورأينَا له قبولًا.

ولا أقول: إنَّه يتعيَّن على الآمر الناهي تلاوةَ هذه السُّورة.

بل أقول: إنَّها مِن أتمِّ ما يحصُل به هذا الغرض، ويتأدَّى عنده هذا المطلب.

وأنت تعلم أنَّ الله –سبحانه– إنما أنزل هذه السُّورة على عباده ليعمَلوا بها، ويقومُوا بما اشتملت عليه من التواصِي بالحق والصَّبر، وفي تلاوتها عند تلاقيهم أعظمُ موعظة وأتمُّ موقظة.

[الكلام على البسملة وهل هي آية أم لا]

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قد وقع الاختلاف بينَ أهل العِلْم في البسملة:

١– هل هي آية مستقلَّة في أول كل سورة كُتبت في أولها؟

٢– أو هي بعض آية من أول كل سورة؟

٣– أو هي آية في الفاتحة فقط دون غيرها من السور؟

٤– أو أنها ليستْ بآية في الجميع وإنما كُتبتْ للفصْل والتبرُّك؟.

فذهب الجمهور إلى الأوَّل، ومن القرَّاء: قُرَّاء مكة والكوفة، ومنهم ابن كثير، وعاصم، والكسائي، وقالون.

وهو الحق ، لأنَّ إثباتها في الرَّسم –بلا خلاف– يدلُّ على أنَّ لها حكم سائر الآيات القرآنية، وقد انضمَّ إلى ذلك تلاوتُها عند تلاوة القرآن من السَّلف والخلَف، والقُرّاء وغيرُهم في أول كلِّ سورة، إلا في سورة التوبة، ولا يقدح في ذلك: تكرارها في أول كلِّ سورة، فإنَّ تكرار الآيات بلفْظِها قد وقَع في كثير من القرآن، ولم يستدلّ

مستدلٌّ على أنَّ ذلك المكرَّر آية واحدة.

وقد أبعدَ من لم يعدّها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها! كأُبيّ وأنس من الصَّحابة رضي الله عنهم، ومالك[١] وأبـي حنيفة والثوري، والأوزاعي[٢] من الفقهاء، وكذلك قُرَّاء المدينة والبصْرَة والشام.

وهكذا لا وجْه[٣] لعدِّها بعض آية، لأنَّ ذلك تحكُّم يَردُ عليه الرسم والتلاوة.

وكذلك لا وجه لعدِّها آية واحدة، وكُرِّرت للفصْل بين السُّور، كما ذهب إليه أحمدُ بن حنبل[٤]، وداود، وبعض الحنفية، لأنَّ هذه دعوى مجرَّدة لا دليل عليها.

فإن استدلُّوا بما أخرجه أبو داود[٥] بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصْل السُّورة حتى ينزل[٦] عليه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾». وأخرجه الحاكم في «المستدرك»[٧].

فلا دليل في ذلك، فإنَّ دلالتها على الفصْل لا يستلزمُ أنَّها ليستْ بآية، لا عقلًا، ولا شرعًا، ولا عادة.

وهكذا لا وجه لعدِّها آية مستقلَّة مِن[٨] الفاتحة دُون غيرها، لأنَّه إن استدل

---

(١) «تهذيب المدونة» (١/ ٨٦)، «مدونة الفقه المالكي» (١/ ٣٤٦).

(٢) «المغني» (٢/ ١٥١).

(٣) في المطبوع: الأوجه!!، وهو خطأ.

(٤) «المغني» (٢/ ١٥٢).

(٥) برقم (٧٨٨).

(٦) في ط: نزل.

(٧) (١/ ٢٣١). وسنده صحيح، وانظر: «صحيح أبي داود» (٣/ ٣٧٣)، وذكره أبو داود في «المراسيل» (٣٦) مرسلًا، وقال: «قد أُسند هذا الحديث، وهذا أصح». وللحديث شواهد، انظر: «الدر المنثور» (١/ ٣١).

(٨) في ط: في!.

بالرسْم فالرسْم للبسملةِ في الفاتحة كالرَّسْم لها في غيرها من السُّور، وإن استدل بغير ذلك فما هو؟.

إذا عرفت هذا؛ فقد وقع الاتفاق على أنها بعض آية في «سورة النمل»[١].

والكلام على هذه الأقوال/ ٢:أ/ استدلالًا وترجيحًا وتصحيحًا مدوَّن في مواضع بسْطِه[٢].

[تفصل القول في إعراب ومعنى (اسم) من البسملة]

﴿بِسْمِ﴾

ومتعلَّق الباء محذوف، وهو: أقرأُ، أو أتْلو، أو نحو ذلك، بما يُناسب ما جُعلتْ التسميةُ مبدأً له.

- فمَن قدَّره متقدّمًا كان غرضُه الدلالة بتقديمِه على: الاهتمام بشأن الفعل.

- ومَن قدَّرة متأخرًا كان غرضُه الدلالة بتأخيره: على[٣] الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، والإشارة إلى أنَّ البداية به أهمُّ لكون التبرُّك[٤] حصل به.

وبهذا **يظهر ترجيح تقدير الفعل متأخرًا في مثل هذا المقام**، ولا يعارضُه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]، لأنَّ ذلك المقام مقام القراءة،وكان الأمر بها أهم.

---

(١) «الإقناع في مسائل الإجماع» (١/ ١٢٩) ط:الفاروق.

(٢) قال المصنف في «النيل» (٤/ ١٣٩): وهذه المسألة طويلة الذيل وقد أفردها جماعة من أكابر العلماء بتصانيف مستقلة ومن آخر ما وقع رسالة جمعتُها أيام الطلب أجبتُ بها على سؤال ورد اهـ قلت: وهذه الرسالة في الجهر والإسرار بالبسملة، وهي مطبوعة ضمن «الفتح الرباني» (أول المجلد السادس).

(٣) في الأصل: منع، وانظر «فتح القدير» (١/ ٨٠) ط:الوفاء، للمصنف.

(٤) في ط: الترك.

وقد اختلف أئمة النحو في المقدَّر هل[١] هو: اسم . أو: فعل.

فمَن[٢] قدَّر الفعل؛ نظر إلى كَونه[٣] الأصل في العَمل، ومَن قدَّر الاسم؛ نظرَ إلى ما فيه من الدلالة على الدوام والثبات.

و(الاسم)

أصله: (سِمْوٌ) حُذفت لامُه، ولما كانَ من الأسماء التي بنوا أوائلَها على السُّكون زادوا في أوله الهمزة، إذا نطقُوا به؛ لئلا يقع الابتداء بالساكن على تقدير إمكان النطق به[٤].

و(الاسم): هو اللفظُ الدالُّ على المسمَّى، كما قاله الجمهور، ومَن زعمَ أنَّ (الاسم) هو المسمَّى كما قاله أبو عبيدة، وسيبويه، والباقلاني، وابن فورك، وحكاه الرازي عن الحُشْوية والكرَّامية والأشعرية: فقد غلطَ وجاء بما لا يَعقل، ولا دل عليه نقلٌ، وهو مدفوع بالعقْل والنقل كما تقرَّر[٥] في مواطنه، والعلم الضروري حاصل لكلِّ عاقل بأنَّ (الاسم) -الذي هو أصوات مقطَّعة وحُروف مؤلَّفة- غير المسمَّى، الذي هو مدلُوله.

وقد ثبت في الصحيحين[٦] وغيرهما: «**أنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا مَن أحصَاها دخلَ الجنَّة**».

---

(١) ساقطة من المطبوع.

(٢) في المطبوع: ومن.

(٣) في المطبوع: كون.

(٤) (به): ساقطة من المطبوع!.

(٥) في المطبوع: يقرر !. واعلم أنَّ هذه المسألة موضع تفصيل، وفيها أقوال، وكل مَن قال قولًا فيُستفصل فيه، وما ذكره المصنِّف صواب، فالاسم يراد به المسمَّى، وقد نُسب لأكثر أهل السُّنة. والذين قالوا: هو المسمَّى أرادوا الردّ على المعتزلة القائلين بأنَّ أسماء الله غيره!. لكن قد أنكرهُ عليهم أكثر أهل السُّنة. انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٦ ، ٢٠٦).

(٦) البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الله -عز وجل-: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الحسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠].

[الكلام على لفظ الجلالة (الله)]

و ﴿الله﴾: علَمٌ لذات الواجب الوجود، لـم يُطلق[١] على غيرها.

وأصله (إله)، حُذفت الهمزة وعوِّضَت عنها أداة التعريف فلزمَتْ، وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس، يقعُ على كلِّ معبود بحقٍّ أو باطل، ثمَّ غلب على[٢] المعبود بحقٍّ، كـ(النَّجم)، فإنه في الأصل لكلِّ نجم في السماء، ثم غلب على (الثريَّا)، وكذلك (الصَّعق)، فإنه في الأصل لكلِّ من أصابته الصَّاعقة، ثم غلب على رجل معروف، فهو قبل الحذف من «الأعلام الغالبة»، وبعد الحذف والتعويض من: «الأعلام المختصة» / ٢:ب/ .

[الكلام على «الرحمن» «الرحيم» من البسملة]

و ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾: اسمان مشتقَّان من الرَّحمة على طريقةِ المبالغة، كما تدلُّ عليه هاتان الصيغتان، و﴿رحْمَن﴾ أشدّ مبالغة من ﴿رحيم﴾، وفي كلام ابن جرير[٣] ما يدلُّ على أنَّ هذا متفق عليه، ولذلك قالوا: (رحمن الدنيا والآخرة)، و (رحيم الدُّنيا)، ويؤيِّد ذلك ما تقرَّر عند أهل الفنِّ مِن أنَّ: (زيادة البناء تدل على زيادة المعنى).

وهما عربيَّان عند جمهور أهل اللغة، وقال ابنُ الأنباري والزجاج: إنَّ ﴿الرحمن﴾ عبراني و﴿الرحيم﴾ عربـي!.

---

(١) في ط: تطلق!.

(٢) ساقطة من ط!.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦) ت:التركي.

واتفقوا على أنَّ ﴿الرحمن﴾ لم يُستعمل في غير الله -سبحانه- فهو مِن الصِّفات الغالبة، ولا اعتبار[١] بما وقَع مِن بني حنيفة من إطلاق (الرَّحمن) على مسيلِمة الكذَّاب!!.

قال أبو علي الفارسي: ﴿الرحمن﴾ : اسم عامٌّ في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى. و﴿الرحيم﴾ إنما هو في جهةِ المؤمنين، قال الله -سبحانه-:﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] انتهى.

ولا يخفاك أنَّ هذا الدليل الذي أورده لا ينتهض للحُجِّية، لأنَّ كونه[٢] رحيما بالمؤمنين: لا يَستلزم أن لا يكون رحيمًا بغيرهم.

والظاهر أنه -سبحانه- رحيم بكلِّ عباده، ولكلِّ مخلوقاته، فهو الذي وَسِعت رحمتهُ كلَّ شيء، وهو الذي سبقتْ رحمتُه غضَبه[٣]، وقد تقرَّر في «عِلْم الإعراب» أنَّ: (فعيلًا) مِن صيغ المبالغة، فحقّ المبالغة أن يكون[٤] رحيمًا بكلِّ شيء، ولكلِّ شيء.

[ما ورد في فضل البسملة]

واعلم أنه قد ورد في فضل البسملة أحاديث فمنها:

- ما أخرجه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرك»، وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن[٥] عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سألَ النبي ﷺ عن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه

---

(١) في المطبوع: والاعتبار !!.
(٢) في المطبوع: كون !.
(٣) في المطبوع: عضبه!!.
(٤) في المطبوع: تكون !!.
(٥) في ط: أبي !.

وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب»[١].

- وأخرج سعيد بن منصور في «سننه» وابن خزيمة في كتاب «البسملة» والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «استرق الشيطانُ من الناس أعظم آية في القرآن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾[٢].

- وأخرج الدارقطني[٣] بسند ضعيف[٤] عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبيَّ ﷺ قال: «كان جبريلُ إذا جاءني بالوحي أولَ ما يلقي عليَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾[٥].

وفي الباب أحاديثُ منها ما هو موضوعٌ، ومنها ما هو ضعيف شديدُ الضعف.

وفي نُزولها مِن عند ربِّ العالمين إلى رسوله المصطفى على لسان أمينه جبريل في أول كل سورة ما يكفِي في شَرفها وفضْلها، وأيّ شرف وفضل أجلُّ وأعظم من هذا!.

ومع هذا فقد ورد الشرعُ بالتعبُّد بها في مواطن:

---

(١) «الدر المنثور» (١/ ٣٨). وأخرجه ابنُ أبي حاتم (١/ ١٢/ ٥)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤/ ١٨/ (٢١٢٣)، **ولا يصح هذا الحديث**، فإنه من طريق سلام بن وهب الجندي، قال الذهبي في ترجمته في «الميزان» (٢/ ١٨): خبر منكر، بل كذب. وقال أبو حاتم حين سئل عنه: هذا حديث منكر. «العلل» (مسألة/ ٢٠٢٩).

(٢) «الدر المنثور» (١/ ٣٠). البيهقي في «الكبرى» (١/ ٥٠)، من طريق عبيد بن عبد الواحد بن شريك ثنا ابنُ أبي مريم أنبأنا محمد بن كثير أخبرني عمر بن ذر عن أبيه عن ابن عباس بلفظ: «**إن الشيطان استرق من أهل القرآن أعظم آية**» قال البيهقي: هذا في كتابي عن أبيه عن ابن عباس، وهو منقطع. قلت: منقطع بين ذرّ وهو ابن عبدالله المرهبي وبين ابن عباس، وقد وضعهُ الحافظ في «الطبقة السادسة» وهي طبقة مَن لم يثبت له لقاء أحد من الصَّحابة، كما في مقدمة «التقريب». فهذا **السند ضعيف**.

(٣) في «السنن» (٢/ ٧٢) ط:الرسالة.

(٤) لأنه من طريق داود بن عطاء، قال البخاري: منكر الحديث.

(٥) وانظر: «الدر المنثور» (١/ ٣٠).

كعند[١] الذبيحة[٢]، وعند الوضوء[٣]، وعند الأكل[٤]، وعند الجماع[٥]، بل ورد مشروعيتها عند كلِّ / ٣:أ/ أمر يَشرع فيه الإنسان[٦].

[الشروع في تفسير السورة]

«قوله تعالى»: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

[الأقوال في معنى العصر، وبيان الراجح، وتوجيه القسم به]

اختلف المفسرون في ﴿العَصر﴾[٧] هذا الذي أقسمَ اللهُ به.

---

(١) في ط: فعند!.

(٢) في نصوص كثيرة من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤]، وفي البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦)، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذبح في الأضحية كبشين أملحين أقرنين، وسمَّى وكبر».

(٣) استحبابًا على الصحيح، وهو قول الجمهور لما سيأتي من مشروعيتها عند كل شيء يُشرع فيه الإنسان، ولم يثبت في إيجابها دليل، قال الإمام أحمد: لا أعلم فيه حديثًا صحيحًا، وقال البزار: كل ما روي في هذا الباب فليس يقوي.

(٤) وجوبًا على الأصح. لما في البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢) عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك».

(٥) لما في البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا».

(٦) قال البخاري : في كتاب الوضوء الباب (٨) «باب التسمية على كلِّ حال، وعند الوقاع»، وذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما السابق، وانظر «الفتح» (١/ ١٩١) ط:الريان.

(٧) ورد «العصر» في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه: **الأول**: المُقسَم به هنا، وهو الدهر على ما رجحه المؤلِّف. **الثاني**: مصدر عَصَر العنب،ونحوه، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾. **الثالث**: بمعنى النجاة من القحط، ﴿يُغَاثُ النَّاسُ وفيهِ يَعْصِرُون﴾. «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٧١). وزاد الدامغاني في كتابه «الوجوه والنظار» (٣٤١) معنى رابعًا، وهو: الشِّدّة، كقوله تعالى: ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾، وانظر «مفردات الراغب» (٥٩٦).

- **فقيل: هو الدهر** . لما فيه من العِبَر التي تظهر فيه على تعاقُب الليل والنهار، مع ما فيها من الدلالة البينة على الصانع -سبحانه- وعلى توحيده.

والعربُ تُطلق على الليل والنهار أنهما عصرٌ، وعلى كل واحد منهما أنه عصرٌ، ومنه قول حميد بن ثور:

ولم ينته العصران: يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يُدركا ما تمنَّيا[١]

وأطلقوا على الغداة أنها عصر، وعلى العشي أنه عصر، ومنه قول الشاعر:

وأُمْطِلُـه العصرين حتى يَملَّني ويرضى بنصف الدَّينِ والأنفُ راغمُ[٢]

وأطلقوا العَصْر أيضًا : على العَشيّ، وما بين زوال الشمس إلى غروبها. ومنه قول الشاعر:

يروحُ بنا عمرو وقد قصُر العصْرُ وفي الرَّوحة الأولى الغنيمةُ والأجر[٣]

فالعصر يُطلق : على كلِّ واحدٍ من هذه، ولا وجْه[٤] لمن ذهب إلى تخصيص واحد منها دون غيره، كما روي عن قتادة[٥] والحسن: أنَّ المراد به في هذه الآية العشيُّ. وروي عن قتادة: أنه آخر سَاعة من ساعات النهار.

والظاهر في هذه الآية: أنَّ المراد به الدهر لعدم التقييد بما يشعرُ ببعض الأوقات

---

(١) وهو هكذا في «فتح القدير» (٥/ ٦٦١)، وذكره القرطبي، وابنُ القيم هكذا: (ولن يلبث ...* ...تيما). وانظر له: «لسان العرب» (٤/ ٥٧٦)، و«المعجم المفصَّل في شواهد اللغة» (٧/ ٩٩).

(٢) وانظر: «المعجم المفصل في شواهد اللغة» (٧/ ١٨١).

(٣) انظر «المعجم المفصل» (٣/ ٢٣١) وهو فيه هكذا: (تروَّح بنا يا عمرو قد قصر العصر..)، وهو كذلك في «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٧)، وفي «فتح القدير» (٥/ ٦٦١): (تروح بنا يا عمرو وقد..).

(٤) في ط: والأوجه !!.

(٥) في ط: القتادة !.

دون بعض[١].

وقد استبعدَ قومٌ وقوع الإقسام منه -سبحانه- بالعصر بمعنى الدَّهْر.

فقال مقاتل: المراد به صلاة العَصْر، وهي الصَّلاة الوسطى[٢]، فقدَّر مضافًا محذوفاً.

وقيل هو قسمٌ بعصر النبي ﷺ لكونه أشرف العصور، وأفضل أجزاء الدهر[٣].

وقال الزجاج[٤]: قال بعضُهم: معناه ورب العصرِ.

ولا يخفاك أنه لا وجْه لشيء من هذه التقديرات، ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يحتاج مثل ذلك إلى التعليل بكون للمُقسَم[٥] به شرفاً وفضلاً، فالربُ سبحانه لا يُسأل عما يفعل.

وقد أقسم بـ﴿العاديات﴾ وهي: الخيل العادية في الغزو.

وأقسم بـ﴿المرسلات﴾ وهي الرياح في قول جمهور المفسرين، وقيل هي الملائكة، وقيل الأنبياء، وقيل السحاب، والأول أولى.

وأقسم أيضًا بـ ﴿العاصفات﴾ وهي الرِّياح الشديدة.

وأقسم أيضًا بـ﴿الناشرات﴾ وهي الرياح أيضًا.

وأقسم أيضًا بـ﴿الفارقات﴾ وهي (٣:ب) الرياح، وقيل الملائكة.

---

(١) قال ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٦١٢): والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر، و﴿العصر﴾ اسم للدهر، وهو العشي والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جل ثناؤه».

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٣٣).

(٣) ذكره أبو الحسن الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٣٣).

(٤) «معاني القرآن» (٥/ ٢٧٥) ط:دار الحديث.

(٥) في ط: للقسم !!.

وأقسم أيضًا بـ﴿الملْقيات ذِكْرًا﴾ وهي الملائكةُ.

وأقسم أيضًا بـ﴿النازعات غرقًا﴾، و﴿الناشطات نشطاً﴾، و﴿السَّابحات سبحاً﴾ ﴿فالسابقات سبقا، فالمدبِّرات أمرًا﴾ وهي الملائكة. والعطف مع اتحاد الكلّ لتنزيل التغاير الوصْفي منزلةَ التغاير الذاتي][1] كما في قول الشاعر:

(إلى الملك الصِّرْم وابن الهمام)[2].

هكذا قال الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال السُدي: ﴿النازعات﴾ هي النفوس حين تغرق في الصدور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النُّجوم تنزع مِن أفق إلى أفق، وبه قال الأخفش، وأبو عبيدة، وابن كيسان.

وقال عطاء وعكرمة: هي القِسّي تنزع بالسّهام، وإغراق النازع في القوس أنْ يمدّه غاية المدِّ حتى تنتهي إلى النّصْل.

وقيل أراد بـ﴿النازعات﴾ الغُزاة الرماة.

وأقسمَ سبحانه بـ﴿النجم﴾، وأقسم سبحانه بـ ﴿السماء ذات[3] البروج﴾، وبـ ﴿اليوم الموعود﴾ وهو يوم القيامة في قول جميع المفسرين، وبـ﴿الشاهد والمشهود﴾، والمراد **بالشاهد** مَن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق التي تحضر فيه، والمراد **بالمشهود** مَا يُشاهد في ذلك اليوم من العجائب، وقيل: المراد بالشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة. قال الواحدي[4]: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري

---

(١) في المطبوع: فتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الدالي !!.

(٢) «المعجم المفصل في شواهد اللغة» (٧/ ١٥)، وفيه «القرم»، بدل «الصرم»، وبقيته فيه: «وليث الكتيبة في المزدحم».

(٣) في ط: بالسموات ذات !!.

(٤) «الوسيط في تفسر القرآن المجيد» للواحدي (٤/ ٤٥٨) ط:دار الكتب.

عن ابن عمر، وابن الزبير: أنَّ الشاهد يوم الأضحى، وقال سعيد بن جبير: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وقال النخعي: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر. وقيل: الشاهد هو الله سبحانه وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير لقوله: ﴿وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩]، وقوله:﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ الله شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقيل: الشاهد محمَّد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، وقوله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقيل: الشاهد جميع الأنبياء لقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء:٤١]، وقيل: هو عيسى بن مريم لقوله: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧]، وقيل: الشاهد آدم، والمشهود ذريته. وقال محمد بن كعب: الشاهد الإنسان كقوله: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، وقال مقاتل: أعضاؤه، لقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] (٤:أ) وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقيل: الشاهد الحفَظة، والمشهود بنو آدم. وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد الخلْق يشهدون لله عز وجل.

ولا يخفاك أنَّ إثبات الشهادة لشيء في الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة لا يدل على أنه المراد في هذه الآية، فالأدلة التي ذكرها هؤلاء لا تصلُح لما أرادوه، وقد ذكرتُ في «فتح القدير»[(١)] ما أورده هؤلاء المختلِفُون من الأدلة المرويّة من طريق الصَّحابة فمن[(٢)] بعدهم، ثمَّ تعقَّبتُ ذلك بما تعقبتُه، ورجّحْتُ ما انتهض دليله،

(١) (٥/ ٥٤٨ ، ٥٥٢ـ٥٥٤) ط:دار الوفاء.

(٢) في ط: عمّن.

فليُرجع إليه، فليس هذا المقام مقام بسط الكلام على ذلك.

وأقسم سبحانه بـ﴿السماء والطارق﴾، ثمَّ بيَّن الطارق بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٢ـ٣].

وأقسم سبحانه بـ﴿الفجر﴾ وهو الوقت المعروف. وقال قتادة: إنه فجر أوّل يوم مِن شهر محرَّم، لأنه لأنها تتفجر منه السنة، ولا وجه لهذا، وقال مجاهد: إنه يوم النحر. وقال الضَّحاك: فجر ذي الحجة. وقيل: المعنى وصلاة الفجر. وقيل: المعنى ورب الفجر، ولا وجه لشيء من ذلك، **والمراد القول الأول**.

وأقسم سبحانه بـ﴿الليالي العشر﴾، وهي عشر ذي الحجة في قول الجمهور، وقال الضحاك: إنها العشر الأواخر من رمضان. وقيل: العشر الأُوَل من المحرَّم، **والراجح الأول**، ولا وجه لشيء مما خالفه.

وأقسم سبحانه بـ﴿الشفع والوتر﴾ وهما كلُّ شفع من الأشياء المخلوقة، وكل وَتْر منها. وقال قتادة: الشفع والوتر: شفع الصلاة ووترها. وقيل: الشفع يوم عرفه، ويوم النحر، والوتر: ليلة يوم النحر. وقال مجاهد وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر: الله سبحانه، وبه قال محمد بن سيرين، ومسروق، وأبو صالح وقتادة. وقال الربيع بن أنس، وأبو العالية: هي صلاة المغرب، فيها ركعتان، والوتر الرَّكعة. وقال الضَّحاك: الشفع: عشر ذي الحجة والوتر: أيام مِنى الثلاثة، وبه قال عطاء. وقيل: هما آدم وحواء، لأنَّ آدم كان وَترًا فشُفع بحواء، وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر دَركَات النار، وهي سبع، وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي (٤:ب)، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعدَه، وهو يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: الوتر هو الله سبحانه، وهو الشفع أيضًا لقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر العدَد كلَّه، لأن

العدد لا يخلوا عنهما. وقيل: الشفع مسجد مكة والمدينة، والوَتر مسجد بيت المقدس، وقيل: الشفع حجُّ القِران، والوَتر الإفراد. وقيل: الشفع الحيوان، لأنه ذكر وأنثى، والوتر الجماد. وقيل: الشفع ما سُمّي، والوتر ما لم يُسمّ.

وقد تعقَّبتُ هذه الأقوال في «فتح القدير»[١] فقلت: ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال[٢] من السُّقوط البيِّن، والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين على مجرَّد الرأي الزائف، والخاطر الخاطئ، **والذي ينبغي التعويل عليه ويتعيَّن المصير إليه ما يدلُّ عليه معنَى الشفع والوتر في كلام العرَب**، وهما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، والوتر: الفرد. **فالمراد بالآية إما نفس العدد، أو ما تصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر**، وإذا قام دليل يدلُّ على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدلُّ على أنَّه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدلُّ على أنه مما تناولتْه هذه الآية لم يكن ذلك مانعًا من تناولها لغيره» انتهى.

وأقسم سبحانه في هذه السُّورة!! بـ﴿الليل إذ أدْبر﴾.

وأقسم سبحانه بـ﴿البلد﴾ بقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد:١]، فإنَّ المعنى أقسم بهذا البلد، لأنَّ (لا) زائدة، كما في قوله سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:١] .

قال الواحدي: «أجمع المفسِّرون على أنَّ هذا قسمٌ بالبلد الحرام، وهي مكة»[٣].

وأقسم سبحانه بـ﴿والدٍ ومَا ولَد﴾، فقيل: (الوالد) آدم، و﴿ما ولد﴾ أي: وما تناسَل مِن ذُريته. وقال أبو عمران الجوني: ﴿الوالد﴾ إبراهيم، و﴿ما ولد﴾ ذريته.

---

(١) (٥/ ٥٧٨).

(٢) في ط: الأمور !!.

(٣) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» (٤/ ٤٨٨).

وقيل: الوالد إبراهيم، والولد إسماعيل ومحمد ﷺ. وقال عكرمة وسعيد بن جبير: و(والدٍ) يعني الذي يُولد له[١]، و(ما ولد) يعني العاقر الذي لا يولد له. وكأنهما جعَلا «ما» نافية وهو بعيد، ولا يصح ذلك إلا بإضمار[٢] الموصُول أي: والذي ما[٣] ولد، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين. وقال عطية العوفي: هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات، **وهذا أقربُ هذه الأقوال إلى الصَّواب، وقد اختاره ابن جرير**.

وأقسمَ سبحانه في سورة الشمس بـ﴿الشمس وضحاها﴾ وبـ﴿القمر﴾ و﴿النهار﴾ (٥:أ) و﴿الليل﴾ و﴿السماء﴾ و﴿الأرض﴾، و﴿نفس وما سواها﴾.

وأقسمَ سبحانه[٤] في سورة الليل بـ﴿الليل﴾ و﴿النهار﴾، و(الذكر والأنثى) على قراءة ابن مسعود، فإنه قرأَ (والذَّكر والأنثى).

وأقسم سبحانه في سورة الضحى بـ﴿الضحى﴾ و﴿الليل﴾.

وأقسمَ سبحانه في سورة التين بـ﴿التين والزيتون﴾، قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس، والزيتون: الذي يعصرون منه الزيت. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس. وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس، **والمتعيِّن الذي لا ينبغي العُدول عنه، ولا يفسّر**

---

(١) له: ساقطة من المطبوع!.

(٢) في ط: بإهمال!!.

(٣) في ط: وما!.

(٤) وكل هذا الاستطراد من المؤلِّف رحمه الله لتقرير ما تقدَّم، وللوصول إلى النتيجة الآتية، فانتظرْها.

القرآن بغيرة هو تفسير التين بالمعنى العربي الواضح الجلي، وكذلك الزيتون، وهما معروفان في لغة العرب، لا يختلف في معناها، فالعدول عن هذا المعنى الظاهر الواضح بغير برهان ليس من دَأب المشتغلين بتفسير كلام الله سبحانه[١].

وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيليا، وقيل: إنه على حذف مضاف: أي ومنابت[٢] التين والزيتون.

وأقسم سبحانه في هذه السُّورة بـ﴿طور سينين﴾، وهو الجبل الذي كلَّم اللهُ عليه موسى، وقال مجاهد والكلبي: سينين كل جبل فيه شجر مُثمر، وقال الأخفش: ﴿طور﴾: جبل، و﴿سينين﴾: شجر، واحدته: سِيْنه.

إذا تقرَّر لك أنه –سبحانه– أقسمَ في كتابه العزيز بهذه المخلوقات المتنوعة، تقرر لك أن المراد بالعصر هو: **الدهر** . كما قررناه.

ولا وجه لتقدير مضاف محذوف فيه، ولا في سائر ما أقسم الله –سبحانه– به من مخلوقاته.

فإنَّ الله – سبحانه – يُقسمُ بما شاء منها، ولم يأتنا دليل ولا شُبهة دليل أنه لا يقسم إلا بما له شَرف، وبما فيه فضيلة ممن حرَّفَ المعاني القرآنية الواردة على نمط لغة العرب، لأجل تحصيل شيء في المقسَم به يصير به ذا شرف: فقد أخطأَ خطأً بينًا، وغَلِط غلطًا واضحًا، فإنَّه تلاعبَ بكتاب الله –سبحانه– لخيال مُختلّ، وتعليل معتلّ، وتوهُّم فاسد، وفهْم كَاسد، فاعرف هذا، وليكُن منك على ذِكر، فكثيرًا ما يقع لأهل العلم الوهم الباطل، ثمَّ يبنى عليه ما هو أبطل منه، وينقله عنه مَن يهاب الرد عليه (٥:ب). فيحرِّر في كتب «التفسير» ونحوها من زائف الأقوال، وباطل الآراء ما يُضحك منه تارة، ويُبكى منه أخرى.

---

(١) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٦٢٣).

(٢) في ط: منبات!!.

والتقليد وإحسان الظنِّ بالأموات هو السَّبب لكلِّ غلَط، والمنشأُ لكلِّ جهل، والحامل على ترويج كلِّ باطل.

فإن قلت: قد أخرج ابنُ جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في تفسير[١] العصر المذكور في هذه السُّورة: «إنه سَاعة مِن ساعات النهار»[٢].

وأخرج ابنُ المنذر عنه أيضًا أنه قال: «إنه ما قبل مغيب الشمس من العشي»[٣].

قلت: قد أخرجَ ابنُ المنذر عنه أيضًا أنه قال: «إنه الدهر»[٤]، فمَعَ[٥] اختلاف الرواية عنه؛ يُرجَّح ما وافق المعنى اللغوي، ويُحمل ما خالفه على المجاز، وقد كانت العرَب تتجوَّز في لفظ العصر فيقولون مثلًا: العصر الأول، والعصر الآخر، وعصر فلان، ولا مشاحّة في ذلك.

وقد اختلف القراء في قراءة هذه الكلمة؛ فقرأ الجمهور: ﴿والعَصْر﴾ بسكون الصاد[٦]، وقرأ يحيى بن سلام: بكسر الصاد، وقرأ الجمهور أيضاً: ﴿خُسْر﴾ بضم الخاء وسكون السين، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى: بضم الخاء والسين[٧] ورويت هذه القراءة عن عاصم.

وأخرج الفريابي وأبو عبيد في «فضائله»، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري، في «المصاحف» عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقرأ

---

(١) في ط: تفسيره !!.
(٢) «جامع البيان» (٢٤/ ٦١٢). من الصحيفة المشهورة معاوية عن علي عن ابن عباس.
(٣) «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٣).
(٤) «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٣).
(٥) في ط: فجمع !.
(٦) انظر: «جامع البيان في القرآءات السبع» (٣/ ٢٩٣) لأبي عمرو الداني.
(٧) «المصباح الزاهر» (٣/ ٣٩٠).

(والعصر ونوائب الدهر إنَّ الإنسان لفي خسر، وإنه فيه إلى آخر الدهر) [١].

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: (والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر)[٢].

قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾

هذا جواب القسَم. و﴿الإنسان﴾ يعمُّ كل فرد مِن أفراد هذا النوع، لتحْلِيتِهِ باللام المفيدة لذلك، كما هو مقرَّر في علم «المعاني» و«البيان»، وبهذا يندفع ما قيل إنّ المراد بالإنسان هنا: الكافر. وما قيل: إنَّهم جماعة من الكفار، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وإنْ كان هؤلاء وغيرُهم من رؤساء الكفر، بل وسائر الكفار داخلين في عموم الإنسان دخولًا أوليًّا، وكما يدل عموم الإنسان على الإحاطة واستغراق النوع؛ كذلك يدلُّ على ذلك: الاستثناء منه[٣].

والمراد بـ﴿الخُسْر﴾ هنا : المعنى اللغوي. قال الأخفش: ﴿في خُسْر﴾: في هَلَكة. وقال الفراء: في عقوبة[٤]. وقال ابنُ زيد: في شَرّ.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤١). أخرجه ابن جرير «جامع البيان» (٢٤/ ٦١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣٤) من طريق أبي إسحاق عن عَمرو ذي مُرّ عن علي، وهذا **سندٌ ضعيف**، عمرو ذي مُر قال البخاري: روى عنه أبو إسحاق وحده، لا يعرف. فهو مجهول العين.

(٢) «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٢). وقال القرطبي معلِّقًا على هذه القراءة: والصحيح ما عليه الأمة والمصَاحف، وقد مضى الرَّد في مقدمة الكتاب على مَن خالف مصحف عثمان، وأن ذلك ليس بقرآن يُتلى. «تفسيره» (٢٠/ ١٦٨).

(٣) في ط: الاستغناء معه!!، وتحرف المعنى جدًّا بهذا. ومن المعلوم أنَّ الاستثناء معيار العموم

(٤) «معاني القرآن» لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت:٢٠٧ هـ) (٣/ ٣٠٠)، ونص كلامه: لفي عقوبة بذنوبه، وأن يخسر أهله ومنزله في الجنة اهـ.

والخسر أيضًا[١]: النُّقصان (٦:أ) وذهَاب رأس المال.

قيل: والمعنى أنَّ كل إنسان في المتاجر والمسَاعي، وصَرف الأعمار في أعمال الدُّنيا لفِي نَقص وضَلال عن الحق حتى يمُوت.

وقال في «الصحاح»: خسِر في البيع خسْرًا وخسراناً، وهو مثل الفُرْق والفُرْقان، وخَسَرْتُ الشيءَ بالفتح، وأخْسَرتُه: نقصته. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:١٠٣]، واحدُهم: الأخْسَر مثل الأكبر، والتخسير: الإهلاك. والخناسير: الهلاك لا واحد له. قال كعب بن زهير:

إذا ما نُتِجْنا أربعًا عام كَفْأةٍ بغاها خناسيرًا فأهلك أربعًا

وفي (بغاها) ضمير من الجد، هو الفاعل، يقول: إنه شَقيّ بالجدّ إذا أُنْتجَت أربع من إبله أربعة أولاد هلَكَت مِن إبله الكبار أربع غير هذه، فيكون مَا هلَك أكثر مما أصاب.

والخسار والخسارة والخَيْسَرَى: الضَّلال والهلاك. انتهى[٢].

وقال في «القاموس»[٣]: «خَسرَ: كفَرِحَ وضَرَبَ. خَسْراً وخَسَراً وخُسْراً وخُسْراناً وخَسَارَةً وخَسَاراً: ضَلَّ. فهو خاسِرٌ وخَسِيرٌ وخَيْسَرَى، وخَسِر التاجِرُ: وُضِعَ في تِجارَتِهِ أو غُبِنَ. والخَسْرُ: النَّقْصُ، كالإخْسارِ والخُسْرانِ. و﴿كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾ غيرُ نافِعةٍ. والخَنْسَرَى: الضَّلالُ، والهلاكُ، والغَدْرُ، واللُّؤْمُ، كالخَسارِ والخَسارَةِ والخَناسِيرِ. والخُسْرَوانِيُّ: شَرابٌ، ونوعٌ من الثيابِ. وخُسْراوِيَّةُ: قرية بواسط. وخَسَّرَه تَخْسِيرًا: أهْلَكَهُ.

---

(١) في ط: والخسران: النقصان !!.

(٢) «الصحاح» (٢/ ٥٥٨) ط:إحياء التراث، وقد نقل المادة كلها.

(٣) «القاموس» (٣٨٤) ط: الرسالة.

والخاسِرَةُ[١]: الضِّعافُ من الناسِ، وأهلُ الخِيانَةِ. والخِنْسِيرُ: اللئيمُ. والخَنْسَرُ والخَنْسَرِيُّ: من هو في موضعِ الخُسْرانِ. والخَناسِيرُ: أبوالُ الوُعولِ على الكَلأ والشجرِ، وسَلْمُ بنُ عَمْرٍو الخاسِرُ: لأنه باعَ مُصْحَفًا، واشْتَرَى بثَمَنِهِ دِيوانَ شِعْرٍ، أو لأنه حَصَلَتْ له أمْوالٌ فَبَذَّرَها انتهى.

أقول: والمناسب للمقام أنْ يكونَ الخُسر: **الهلاك للإنسان المذكور لعدم استقامته على الدين.**

وليس المراد الهلاك الدنيوي بالقتل أو نحوه. **بل المراد الهلاك الديني الموجب لمصيره إلى النار،** كما يفيد ذلك استثناء : الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وأيضًا المقام مقام الترهيب للعصاة، والترغيب لأهل الإيمان والطاعات.

ومجموع ذلك يفيد أنَّ تفسير الخسر بذهاب الدِّين الموجب للشقاوة الأبدية، وهذا أولى من تفسير الخسر بالنَّقْص، لأن مقام الترهيب والتشديد (٦:ب) والمبالغة في الوعيد يقتضي الخسران التام، وهو: ذهابُ الدِّين بالمرَّة، المستلزم لهلاكِ صاحبه، لا نقصه وذهاب بعضه وبقاء بعض.

ولا يخفى أنَّ هذه الجمْلة القَسميَّة قد اشتملتْ على مؤكِّدات:

- منها القسم.

- ومنها تسوير جواب القسم بحرف الشبيه[٢]، وله مدخلية في تأكيد ما دخل عليه من الكلام.

- ثمَّ المجيء بالجملة الإسمية، فإنها تدل على الدوام والثبات.

---

(١) في حاشية «القاموس»: صوابه والخناسر، كما في أمهات اللغة. انتهى من الشارح، يعني الزبيدي في «تاج العروس».

(٢) يعني «إنَّ» في قوله:﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، و«إنَّ» وأخواتها يقال لها: الأحرف المشبهة بالفعل، وتفيد إنّ عند النحويين توكيد اتصاف المسند إليه بالمسند.

- ثم تحْلِية الإنسان باللام الاستغراقية المفيدة للعموم.
- ثمَّ اللام في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.
- ثم المجيء بـ (في) الدالة على أنَّ الخسر قد صار ظرفًا له، فكأنه منغمس فيه، وهو مشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف.

فقد اشتمل هذا الكلام على جميع المؤكِّدات التي ذكرها أهلُ «البيان» وكلُّ ذلك يفيد أنَّ لزوم هذا الخسر للإنسان ثابت لا محالة، وأنه لا ينفك عنه بحال من الأحوال، ولا يُفارقه بوجْه من الوجُوه إلا إذا تخلَّص عنه بما[1] تضمَّنه الاستثناء، فإنه يخرج به من الظُّلْمة إلى النور، ومِن الضِّيق إلى السَّعَة، ومن الهلاك إلى السَّلامة، ومن العذاب إلى النعيم، ومن النار إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾.

الموصول مِن صيغ العُموم كما تقرَّر في علم «البيان» و«الأصول»، فيَشمل[2] كل من حصَل له وصف الإيمان.

وقد اختلفَ الناسُ في تفسير الإيمان أصلًا فأكثرُوا وأطالوا في ذلك، وتنوّعت كلماتُهم، واختلفت رسُومهم، والذي ينبغي الاعتماد عليه، والمصير إليه هو ما ثبت عن الصادق المصدوق ﷺ في «تفسيره» وبيان معناه كما في الصحيحين وغيرهما، فإنه لما سأله السَّائل عن الإيمان قال: «**أنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله [واليوم الآخر] والقدر خيره وشره**»[3]، وعند هذا البيان النبوي والتفسير المصطفوي يُستغنى عن تلك الحدُود التي حدُّوه بها، والرُّسوم التي اصطلحوا عليها، وإذا جاء

---

(١) في ط: مما !!.

(٢) في ط: فيشتمل!.

(٣) لفظ حديث عمر رضي الله عنه في صحيح مسلم (٨)، وبنحوه في البخاري (٥)، ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نهر الله بطل نهر معقل.

والمراد هنا: هو الإيمان الشرعي، لأن الحقائق الشرعية مقدمة على غيرها كما تقرَّر في «علم الأصول».

وهو في «الشرع»: التصديق عن كمالِ اعتقاد، بحيث لا يشُوبه شكٌّ ولا يعتريه[١] شبهة. ولو لم يكن على هذه الصِّفة لم يكن تصديقًا صحيحًا.

والمراد من التصديق بالله سبحانه: أنْ تصدِّق بوجوده، وأنه الإله الخالق الرازق، والمحيي المميت، الحي الدائم، الأحد الصمد، الذي لم يشاركه مشارك، بل هو المتفرد بالرُّبوبية، والكلّ من هذا العالم عِبادُهُ، وتحت حكمه، يصنع فيهم المتفرد[٢] ما يشاء (٧:أ)، ويحكم ما يريد. ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وتصدِّق بوجود ملائكته على الصِّفة التي وردَتْ في الكتاب والسنة.

وتصدِّق بأنَّ الله أنزل كتبَه على رسله ليبيِّنوا لهم ما شرعه لهم من الشرائع، وأن هذه الكتب التي جاء بها الرسلُ صلوات الله عليهم وسلامه هي من عند الله عز وجل وأنها كلَّها حقٌّ وصدق وشرع، وإن خالفَ بعضها بعضًا، فإنَّ ذلك إنما هو لرعاية مصالح العباد بحسب اختلاف الأوقات والأحوال و الأشخاص.

وتصدِّق أيضًا بأنَّ الرُّسل الذين أرسلَهُم الله إلى عباده هم رسُله حقًّا، وأنه أمرهم بإرشاد العباد إلى ما شرعه لهم من الشرائع، وبيَّنه لهم من المصالح الدينية

---

(١) في ط: حتى، مكان «يعتريه»!!. وتصديق القلب الجازم بالله **وما يجب له من الحق** يستلزم تحقيق ما صدَّق به من القول والعمل، وعن التصديق بالله يكون الخضوع لله والعمل بما يستلزمه التصديق، ومِن هنا قال أهل السنة: إنَّ الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وسيذكر ذلك المؤلّف عند الكلام على ﴿وعملوا الصالحات﴾.

(٢) ساقطة من ط.

والدنيوية، لطفًا بهم، وتوفيقًا لهم، وإقامةً للحجة عليهم، لئلا يقولوا ما جاءنا من رسول، ولله الحجة البالغة.

وتصدِّق بالقدر خيره وشره، أي بأنَّ ما كان أو سيكون مِن كبير وصغير، وجليل وحقير، وخير وشرّ، ونفْع وضُرّ هو بتقدير الله سُبحانه وقضائه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ليس للعبد في ذلك عمل، ولا له تصرُّف في نفسِه، ولا في غيره، ولا في جليل أموره، ولا في حقيرها، ولا في صغيرها، ولا في كبيرها، بل قدر الله وما شاء فعل.

[أهمية الإيمان بالقدر وفوائده]

واعلم أنَّ الإيمان بالقدَر هو العقبة الكؤودُ، والمرقأ الصَّعب، فإنه إذا صح للعبد الإيمان به كما ينبغي لم يأسَف على فائتٍ كائنًا ما كان، لأنه يعلم أنَّ ذلك هو من جهة خالقه ورازقه، ومَن هو أرْأَف به من أبويه، وأَحْنا عليه من نفسه.

ولكن هذه النفوس البشرية المجبولة على السُّرور بالخير، والنفور عن الشر، فإذا دهَمها شيء مما تكره؛ اضطربَتْ له ونفَرتْ عنه، وضاق ذرعها به، وطال همها، وكثر غمها، وذلك جِبلَّة خِلقية، طبيعة بشريَّة، فيكون بذلك تكدّر العيش، وضيق العطن، وتشوّش الحال.

ولكنه إذا راجعَ نفسَه وتعقَّل ما أُمر به من الإيمان بالقدر، وأنَّ ذلك مِن عند الله عز وجل: هان الخطب، وقلّ الكرب، وذهَب الغمّ، وارتفع الهم.

وما أحسن ما قاله إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن لم يمش مع القدر لم يتَهنَّ بعيشه».

[أهمية الدعاء، وفوائده]

وهاهنا باب يدخُل منه من كَرَبهُ أمرٌ، ومسَّه خَطبٌ؛ يلج[1] منه إلى حصْن

---

(١) في ط: يلجأ !!.

حَصين ينجُو به من كل شيء يخافُه ويحذرُه، **وهو الدعاء**، فإنه الترياق النافع، والمرهم الشافي.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه يردُّ القضاء[١]، وأنهما يَعْتلِجَان (٧:ب)،

---

(١) والحديث جاء عن جماعة من الصَّحابة، ذكر بعضَهم السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣٤٤)، وكذا العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ٤٨٦)، والحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٢٢١).

والذي وقفت عليه إجمالا عن (١١) صَحابيًّا، وهم: أبو هريرة، وعائشة، وحديثان عن أنس، و أبو موسى الأشعري، ومعاذ، وعبادة بن الصامت، وابن مسعود، وابن عمر، وسلمان، وثوبان رضي الله عنهم.

حديث أبي هريرة بلفظ: «**إن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض، فيعتلجان إلى يوم القيامة**». أخرجه البزار (٢١٦٤/ كشف الأستار)، وعبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (٢)، وسنده ضعيف جدًّا، فإنه من طريق إبراهيم بن خثيم بن عراك: متروك الحديث، وبه أعله الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٢٥).

حديث عائشة: بلفظ حديث أبي هريرة السابق. أخرجه البزار (٢١٦٥/ كشف)، والطبراني في «الدعاء» (٢/ ٨٠٠/ ٣٣) وعبد الغني المقدسي في «الدعاء» (٥). وسنده ضعيف جدًّا، من أجل زكريا بن منظور: متروك الحديث، وبه أعلَّه الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٤/ ٢٢١/ قرطبة)، وكذا الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٢٥).

حديث أنس: ولفظه أنَّ النَّبي ﷺ قال له: «**يا بني أكثر من الدعاء فإن الدعاء يرد القضاء المبرم**». أخرجه عبد الغني المقدسي في «الدعاء» (٤)، والأصبهاني في «الترغيب» كما في «الضعيفة» (٥٤٧٧)، والخطيب في «التاريخ» (١٣/ ٣٦) كما في «الضعيفة» أيضًا (٢٨٧٦) من طريق كثير بن عبد الله أبي هاشم عن أنس به. قال ابنُ حبان: يضع على أنس. وقال أبو حاتم والبخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: ليس بثقة ولا أمين ولا كرامة. وقد حكم عليه العلامة الألباني بالوضع.

مرسل نمير بن أوس الأشعري، وجاء بذكر أبي موسى الأشعري. بلفظ: «**الدعاء جند من أجناد الله مجند يرد القضاء بعد أن يبرم**». أخرجه ابن عساكر عن نمير بن أوس مرسلا، وقد جاء موصولا بذكر أبي موسى في «مسند الديلمي» وسنده ضعيف جدًّا، وحكم عليه العلامة الألباني بالوضع، راجع «الضعيفة» (١٨٩٩).

=

حديث عبادة بن الصامت.بلفظ: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، ما نزل يكشفه، وما لم ينزل يحبسه». أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٣٤) في حديث هذا بعضه، من طريق عراك بن خالد بن يزيد ثنا أبي قال سمعت إبراهيم بن أبي عبلة يحدث عن عبادة بن الصامت ..به. **وهذا سند ضعيف**، والحديث منكر.

قال أبو حاتم ـ وقد سئل عن الحديث ـ : «هذا حديث منكر، وإبراهيم لم يدرك عبادة، وعراك: منكر الحديث».«العلل» لولده (٢/ ٦١٥/ رقم المسألة (٦٤٠).

حديث ابن مسعود . بلفظ: «**أعدوا للبلاء الدعاء**». أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢/ ٨٠٦/ (٤٨)، وعبد الغني المقدسي في «الدعاء» (٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٨٢) من طريق موسى بن عمير عن الحكم عن إبراهيم عن الأسود بن يزيد عن عبد الله..به. **وهذا سند ضعيف جدًّا**، موسى بن عمير : متروك وقد كُذِّب. وبه أعله الهيمثي (٣/ ٦٤)، وقال البيهقي عقبه: تفرد به موسى بن عمير، وإنما يُعرف هذا المتن عن الحسن البصري عن النبي ﷺ مرسلًا.

حديث ابن عمر . بلفظ: «**إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**».

أخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي عن موسى بن عقبة عن ابن عمر ..به في إثر حديثٍ. وعبد الرحمن هذا؛ قال الحافظ في «التقريب»: ضعيف، وترجمته في «التهذيب» و«الميزان» تفيد إطباق المحدثين على تضعيفه، قال ابن معين : ضعيف، وقال البزار: لين الحديث، وقال البخاري كما في «التاريخ» (٥/ ١٤٩): منكر الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال مرَّة: متروك، وقال أحمد: منكر الحديث. فهذا كما ترى تضعيف شديد، وليس فيه توثيق يرفع من حاله قليلًا، فالاستشهاد به فيه نظر.

فهذه الأحاديث المتقدمة كما ترى لا تصلح للتقوية.

حديث معاذ. بلفظ: «**الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء**». أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٤)، والطبراني في «الدعاء» (٢/ ٨٠٠/ ٣٢)، والمقدسي في «الدعاء» (٣). من طريق إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن معاذ ...به. **وهذا سندٌ ضعيف** فيه علَّتان، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢١٩): وشهرُ بنُ حوشب لم يسمَع من معاذ، ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة. قلت: وثمَّ علة ثالثة وهي ضعْف شهر على الصحيح.

=

وثبت في الأحاديث الصحيحة الاستعاذة من شرِّ القضاء كما في «صحيح مسلم»[١] وغيره.

وثبتَ في حديث الحسَن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في القنوت الذي علَّمه رسول الله ﷺ: «**وقني شر ما قضيت**»[٢].

حديث آخر عن أنس. بلفظ: «**ادعوا فإن الدعاء يرد القضاء**». أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢/ ٧٩٨/ ٢٩) قال: ثنا عثمان بن عمر الضبي ثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن بريد بن أبي مريم عن أنس.. به.

وهذا سند رجاله ثقات، عثمان الضبي، قال الحاكم: ثقة مشهور، وقد أكثر عنه الطبراني كما في «تراجم شيوخ الطبراني» (٤١٧). وعبدالله بن رجاء وثّقه جمع، ومَن فوقه معروفون.

حديث سلمان . بلفظ: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**». أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، والطبراني في «الدعاء» (٣٠) . من طريق أبي مودود عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان.. به. وهذا سند ضعيف، أبو مودود هذا : اسمه: فضة: ضعيف.

حديث ثوبان . بلفظ: «**لا يرد القدر إلا الدعاء**». أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧) من طريق سفيان عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان ..به.

وهذا **سند ضعيف**، عبد الله بن أبي الجعد مجهول حال، وفي سند الحديث اختلاف فقد روي على غير هذا الوجه، لكنها معلَّة، إما لضعف راويها ضعفًا شديدًا، أو لتخطئتها من قبل الأئمة، انظر «تحقيق المسند» (٣٧/ ٦٨)، وقد ذكر العلامة الألباني حديث ثوبان هذا في «الصحيحة» (١٤٥)، وحسَّنه بحديث سلمان المتقدم.

قلت: فإذا أضيف إلى ذلك حديث معاذ ـ فإنَّ ضعفه منجبر ـ وحديث أنس فإنَّ سندَه قويّ رجاله ثقات، **فلا شك في أنَّ الحدث حسن صحيح**، لكن في اللفظ الذي اشتركوا فيه وهو : «**أن الدعاء يرد القضاء**» والله أعلى وأعلم.

(١) مسلم (٢٧٠٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أنَّ النبي ﷺ كان يتعوَّذ من سوء القضاء ومِن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء ومن جَهد البلاء»، وأخرجه البخاري (٦٣٤٧).

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، وأحمد (١/ ٢٠٠)، وغيرهم من طريق أبي إسحاق عن بريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء عن الحسن بن علي.. به. وتابع أبا إسحاق ابناه: يونس وإسرائيل على قوله «في قنوت الوتر»، وقد أعل هذا اللفظ، بأن شعبة رواه عن بريد فقال: كان يعلمنا هذا الدعاء، ولم يذكر «في قنوت =

واعلم أنه قد اشتغل كثيرٌ من الناس بالسُّؤال عن سرِّ القدر، واستشكال مباحث من مباحثه، ولوازم مِن لوازمه، وهؤلاء مَع كونهم قد خالفُوا ما وردَتْ به السُّنة المطهَّرة مِن النَّهي عن البحث عَن سرِّ القدر، والاشتغال بما تُخيِّله الأذهان، وتزيِّنه الأوهام؛ لم[1] يقتدوا برسول الله ﷺ الذي أمره الله سبحانه بأنْ يبين للناس ما نزل إليهم، فإنه ﷺ لما سُئل عن ذلك طَوى بسَاط التفصيل والتطويل والإطناب والتعليل، واكتفى بقوله: «**اعملوا فكلٌّ امرئ ميسَّر لما خُلِق له**»[2].

واعلَمْ أنّ هذا الاستثناء الواقع في الآية متصلٌ عند كلِّ مَن حمل المستثنى منه على العموم وهو الحق.

وأمَّا مَن قال: إنَّ المراد به جنس الكفار، أو كفار معيَّنين فهو يجعلُه منقطعًا، والتقدير: ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فإنْ قلت: ظاهر ما في هذه الآية من العُموم شمولـها لأهل الفترة الذين لم يبلغْهم شيء من شرائع الله سبحانه، لأنهم ماتوا ولم يؤمنوا ولا عملوا الصالحات.

قلت: هؤلاء وإنْ دخلوا في عموم الإنسان فقد خرجُوا بالعفْو عنهم لجهْلهم بالشرائع، وعدم تمكُّنهم مِن طلبها، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

فإن قلت: الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه منزَّهون عن أنْ ينالهم خُسْر؛ لما

الوتر»، والذي يظهر ثبوت هذه الزيادة وعليها العمل عند كثير من أهل العلم، انظر «التلخيص» (١/ ٤٤٦) قرطبة، و«الإرواء» (٢/ ١٧٢/ ٤٢٩).

(١) متعلق بقوله: مع كونهم...، أي جمعوا بين مخالفة النهي، وعدم الاقتداء بالنبي ﷺ.

(٢) جاء من حديث علي رواه البخاري (٦٢١٧) و(٦٦٠٥)، ومسلم (٢٦٤٧)، وجاء من حديث عمران بن حصين، رواه البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩)، وجاء من حديث جابر ، أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

ثبت لهم من العصمة قبل النبوة وبعده.

قلت: هم أعلى طبقات العالَم، وأكرم جنس بني آدم، وقدوة أهل الإيمان، وأسوة الصالحين، فكما أنَّ أهل الإيمان خارجون من الخسر بإيمانهم، فأنبياء الله خارجون عنه باصطفاء الله لهم، مع كون إيمانهم أكمل إيمان، وإيقانهم أشرف إيقان.

وإنما يرد هذا السؤال لو كان المستثنى داخلًا فيما أسند إلى المستثنى منه، مشاركًا له فيما نسب إليه، **وليس الأمر كذلك**، فإنه إنما شاركه في كونه من أفراده ومِن جملة ما يصدُق عليه باعتبار العموم لا باعتبار ما نُسب إليه.

ولهذا قدَّر الاستثناء أئمةُ النحو والأصول والبيان بأنَّ معنى: جاءني القوم إلا زيدًا: القومُ المخرَج منهم زيد جاؤوني[1]. وهكذا سائر التراكيب الاستثنائية.

فالتقدير فيما نحن بصدده: الإنسان المخرَج منه (٨:أ) الذين آمنوا وعملوا الصالحات: في خُسْر.

فإن قلت: قد ذكرنا أنَّ لله سبحانه أن يُقسِم بما يَشاء مِن مخلوقاته، فهل ثَمَّ نكتةٌ في تخصيص الإقسام بالعصر في هذه السورة؟.

قلت: يمكن أنْ تكون النُّكتة: أنّ (العَصْر) الذي هو الدهر لما كان كثير من الغافلين ينسبون ما يَنابُهم من السَّعادة والشقاوة إليه، أقسَم الله به بلزوم الخسْر لهم، وأنهم في خُسر لا يتخلَّصون عنه إلا بما تضمَّنه الاستثناء.

ومع ذلك فقد ثبتَ في الصَّحيح: «**لا تسبُّوا الدَّهْر فإنَّ الله هو الدهر**»[2] وفي هذا: مخصص للإقسام به ظاهر في فاتحة هذه السُّورة المشتملة على التهديد ومزيد الوعيد.

فإن قلت: هل مِن نُكتةٍ في ذكْر الإنسان في هذه الآية مع إمكان أنْ يُؤتى مكانه

---

(١) في ط: جاءني!.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٤٦).

بالناس أو ما يفيد مفاده؟.

قلت: يمكن أنْ يقال: إن هذا اللفظ ـ أعني الإنسان ـ خاصٌّ بهذا النوع لا يتناول غيره، ولا يشاركه فيه سواه، بخلاف لفظ (الناس) فإنه كما في كتب «اللغة»[١] يُطلق على الجنِّ كما يطلق على الإنس، وعلى (ناس الإبل) وهو ساقُها[٢].

فإنْ قلتَ: هل مِن نُكتةٍ في ذكْر الخسر دون الهلاك، أو الشقاء، أو العذاب، أو ما يؤدِّي هذه المعنى؟.

قلت: يُمكن أن يُقال إنَّ النكتة في ذكْره: دلالتُه على تلك المعانـي المتنوِّعة مِن الهلاك والنقص، وسائر ما ذكرناه هنالك، فإنَّ ذلك قد يكون أنسب بأحوال الأشخاص المختلفين في إهمال الشَّريعة بأسْرها وهم الكفار، وفي النقص منها وهم العصاة من هذه الأمة، وهذا لا ينافي ما رجَّحناه فيما تقدَّم من حَمْلِهِ على الهَلاك.

فإن قلت: ما وجه المجيء بالموصُول في قوله: ﴿إِلَّا الذِينَ آمَنُوا﴾ وهلا اكتفى بما هو أخصرُ فقال: إلا المؤمنين؟.

قلت: المجيء بالموصُول فيه فوائد ذكَرهَا أهلُ «المعاني» ولو لم يكن منها إلا **الدلالة على التعظيم لشأنه**، وما أحقّ المؤمنين بذاك!.

[الكلام على قوله: ﴿وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ﴾، وبيان أهمية العمل في الإيمان]

وقد دل العطف بقوله: ﴿وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ﴾ على أنَّه **لا بد مِن الجمع بين الإيمان وبين العمل**، وأنه لا يَكفي مجرَّد الإيمان.

والمراد بـ ﴿الصالحات﴾: الأعمال الصالحة، **وأهمّها وأقدمها: ما يجب على الإنسان القيام به.**

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٨٣٠) للجوهري، و«معجم مقاييس اللغة» (١٠٠٢) ط:دار الفكر، «لسان العرب» (١٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

(٢) قال الجوهري: نُستُ الإبل أنوسُها نوسًا: سقتها اهـ.

ومِن ذلك أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ثمَّ ترْك ما حرَّمة الله عليه، فإنَّ الكفَّ عن ذلك عمل صالح يُمدح التارك له على تركه، ويُذمُّ الفاعل له على فعله.

ثمَّ يفعلُ من أعمال الخير ما بلغَتْ إليه قدرتُه على حسب الحال، ومن زاد زاد الله في حسناته.

والحاصل: أنَّ العمَلَ[1] بالواجبات، واجتناب المحرَّمات، متحتِّم على كلِّ مكلَّف، **فهو لا يخرج من الخسر المذكور في الآية إلا بمجمُوع الإيمان،** والقيام بذلك على التمام (٨:ب).

وقد ثبتَ في الأحاديث الصحيحة أنَّ النبي ﷺ قال لمن سأله عن الإسلام: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»[2].

وثبت في الكتاب والسنة الأمر بكلِّ[3] واحد من هذه الأركان على الخصُوص، وثبت في الكتاب والسنة الأمر بواجبات، والنهي عن محرَّمات.

فلا ينجو من الخسر المذكور في الآية إلا من قام بذلك على الحد الذي أمره الله به، ونهاه عنه.

فهذه هي الصالحات التي أمر الله سبحانه بعملها، جعلها مجموعَ الإيمان، والعمل بهذه الأمور هو الذي يخرجُ به الإنسان عن الخسر الذي هو ختم في رقاب العباد

---

(١) في الأصل: الإيمان.

(٢) هو حديث جبريل المشهور، متفق عليه عن أبي هريرة، وفي مسلم عن عمر، وتقدم تخريجه.

(٣) في ط: لكل !.

بالقسم الرباني، والحكم الإلهي.

فإنْ قلتَ: إنْ كان هذا التعريف في ﴿الصالحات﴾ للاستغراق، والمراد: أنَّ كلَّ فردٍ عَمِل كلَّ الصالحات، فهذا مما لا يدخُل تحتَ قُدرة البشر. فإنَّ الصالحات لا يُمكن الإحاطة بها فضْلًا عن أن يُمكن فِعل كل واحدة منها؟.

قلتُ: هذا التعريف يمكن أن يُراد به العَهْد، فتكون الصالحات هي المعهود التي يتحتَّم القيام بها كما قدَّمنا.

وقد قال المحقِّق الرَّضِي[1] في «شرح الكافية»[2]: «إنَّ التعريف العهدي هو الأصل في أقسام التعريف المذكورة في علم «النحو» و«المعاني».

والحكم بأصالته يقتضي تقديم الحمْل عليه.

ويُمكن أن تكونَ للجنْس، وذلك لا يَسلتزم الإحاطة بكلِّ أفراد الصالحات، بل يدخُل فيها ما يتحتَّم القيام به دخولًا أوليًّا، ثمَّ يكون ما عدا ذلك على حُكمه الذي يتصف به من كونه مسنونًا أو مندوبًا أو نحو ذلك، فيفعل العبدُ منها ما يَشاء أنْ يُؤجَر عليه، ويكثُر به ثوابه وتتعاظَم به حسناتُه.

واعلم أنَّ هذا النظم القرآنـي قد دل أكمل دلالة على **أنَّ الإيمان الذي هو التصديق لابد أن ينضم إليه العمل كما هو المذهب الحق**، وفيه أوضح ردّ، وأكمل دفْع لقول مَن يقول: إنَّه لا يلزم ضم العمل إلى الإيمان، كما يذهب إليه بعض

---

(١) محمد بن الحسن الاستراباذي، نزيل النجف، شيعي، انظر: «بغية الوعاة» (١/ ٥٦٧)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٣٩٥)، «معجم المؤلفين» (٩/ ١٨٣).

(٢) «الكافية» متن نحوي نثري من تأليف ابن الحاجب *رحمه الله* شرحَهُ الرضي، وغيره، وشرح الرضي طبع مؤخَّرًا في خمسة مجلدات، ولابن الحاجب متن آخر نثري اسمُه «الشافية» في علْم الصَّرف والخط، وشرَحه الرَّضِي أيضًا، مطبوع في مجلدين، وهذان المتنان غير «الكافية الشافية» فإنَّ هذا لابن مالك وهو متن بالنظم في النحو والصرف، وقد شرَحه هو نفسه، وهو مطبوع في مجلَّدين.

المرجئة.

واعلَم أنَّها تتفاوَتْ أقدام المؤمنين في التصديق، فقد يكون إيمان الرَّجل ثابتًا كالجبال الرَّواسي، بحيث لا يتزلْزَل لشبهةٍ، ولا يتقَهْقَر لشكٍّ ولا تشكيك، وقد يكون دون ذلك، ولهذا قال الجمهور: **إنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وهو الحق**، وذلك مما يعلمُه كلُّ عاقِل، ولاسيما الإيمان بالقَدر؛ فإنَّ بعض أفراد العباد قد يمنحُه الله سبحانه (٩:أ) من الإيمان بقَدَرِهِ ما يَنْثَلِج[1] به قلبُه، وتقرّ به عينُه، ويطمئنّ إليه خاطرُه، فيخرُج عن مضيق الهموم، والغموم، والحسرات، والكربات، إلى متَّسع التسليم والرِّضَا بما يجري به القضَاء.

اللهم ارزقنا الإيمان بقدَرِك على الوجْه الذي تُريده منَّا، مع حُلول ألْطافِك الخفيَّة علينا، ووُصول توفيقاتِك المباركة إلَيْنَا، يا مَن بيده الخير كلّه، دقّه وجلّه.

وكما تختلفُ أحوال الإيمان باختلاف الأحوال والأشخاص؛ كذلك يختلفُ عمل الصالحات باختلاف الأحوال الأشخاص.

فالعمل مع الخلُوص والتنزُّه عَن شوائب الرِّياء، والبُعد مِن آفات الغفلة = يتضاعفُ ويكثُر ثوابُه، ويعظُم أجرُه، بخلاف ما لم يكُن على هذه الصِّفة.

والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مناديةٌ بذلك بأعلى صوت، ففي بعضها التصريح بأنَّ فاعِلَ ذلك العمل يوفَّى أجره بغير حساب، وفي بعضِها إلى سبع مائة ضعف، وفي بعضها إلى أكثر من ذلك، وفي بعضها أنَّ الحسنة بعشرة أمثالها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قلت: قوله: ﴿وَعَمِلُوا﴾ يدلُّ على أنه يكفِي عمل الصالحات مرَّة واحدة، لأنَّ الفعلَ مِن باب المطلَق، فيصدق معناه بالمرَّة الواحدة، وليس في الصَّنعة ما يدلُّ

---

(١) في ط: يثلج !.

على التكرار، وأكثر الأعمال الصَّالحة التي تتحتَّم على الإنسان واجبةٌ على جهة التكرار، بحيث إنه إذا أخلَّ بشيء منها لم يخرج من الخسران ؟.

قلت: الأمر كما ذكرتَ. ولكن الأدلَّة من الكتاب والسُّنة قد دلَّت على وجوب تكرَار ما هو متكرِّر، والإجماع قائم على ذلك.

وهكذا قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ فإنه إنما يدلُّ على مجرَّد وقوع الإيمان وهو التصديق، وليس فيه ما يدلُّ على وجوب الثبوت عليه، والاستمرار على معناه، ولكن الأدلة الصحيحة قد دلَّت على ذلك دلالةً واضحة ظاهرة، فلا يكون مؤمنًا إلا إذا دامَ على التصديق بتلك الأمور حتى يتوفَّاه الله عزَّ وجل.

فإن قلت: هل بين هذا التركيب المذكور في هذه الآية وبين قوله سبحانه في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٥ـ٦] تقاربٌ ولَو مِن بعض الوُجوه؟.

قلت[1]: نعم. ولكن على أحَدِ التفسيرَين، وهو أنَّ المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أنه ردّ الإنسان إلى أسفل درَكات النار ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٩:ب) فإنَّهم ناجُون من ذلك، فائزون بأجر غير ممنون.

ولا ينافي كون جنْس العُصَاة من الكفَّار وغيرهم أسفل السافلين مَا وردَ في المنافقين بأنَّهم في الدَّرك الأسفل من النار، فلا مَانع مِن كَون الكفَّار والمنافقين والعصاة مجتمعين في ذلك الدَّرك الأسفل من النار.

ويكون قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إما حال من المفعول، أي ردَدْناه حالَ كونه أسفل سافلين، أو صِفة لمقدَّر محذوف أي مكانًا أسفل سافلين.

ويكون في سورة التين زيادةٌ ليستْ في سورة العصر، وهي: أنَّ لهم أجرًا غير

(١) الجواب على شقين، الأول: نعم، أي على تفسيرٍ، وهو ما سيذكره الآن، والثاني: لا، أي على تفسير الجمهور، وسيأتي قريبا.

ممنون، وفي سورة العصر زيادة ليستْ في سُورة التين، وهي: التواصي بالحقِّ والتواصِي بالصَّبر.

وقد رُوي مثل هذا التفسير عن مجاهد، وأبي العالية، والحسن.

بل روى ما يفيد ذلك الخطيب[١]، وابن عساكر[٢] عن الزهري، عن أنس عن النبي ﷺ أنَّ المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: عبدَةُ الأوثان من اللات والعزى. والمراد بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

ولكن في إسناد هذا الحديث مجهول[٣]، فلا تقومُ به حجَّة.

وأما على تفسير الجمهور: فلا،[٤] وهو الظاهر الذي يدلُّ عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي في أحسَن شكْل وتعدِيل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

---

(١) في «تاريخ بغداد» (٢/ ٩٧) ترجمة محمد بن بيان بن مسلم. وقال عقب الحديث: «هذا الحديث بهذا الإسناد باطل لا أصل له يصح فيما نعلم. والرِّجال المذكورون في إسناده كلّهم أئمة مشهورون غير محمد بن بيان، ونرى العلة من جهته، وتوثيق ابن الشِّخّير له ليس بشيء، لأنَّ مَن أورد مثل هذا الحديث بهذا الإسناد، قد أغنى أهل العلم، عن أن ينظُروا في حاله، ويبحثوا عن أمره، ولعله كان يتظاهَر بالصَّلاح، فأحسن ابن الشخير به الظن، وأثنى عليه لذلك».

(٢) في «تاريخ دمشق» (١/ ٢١٤) من طريق الخطيب، ثمَّ حكى عقِبَه قول الخطيب السَّابق.
فائدة: قد جاء نحو هذا في تفسير سورة العصر، روي عن ابن عباس موقوفًا كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٦٤٤)، وجاء عن كعب مرفوعًا: (لفي خُسْر) أبو جهل، (إلا الذين آمنُوا) أبو بكر، (وعملُوا الصالحات) عمر، (وتواصوا بالحق) عثمان، (وتواصوا بالصبر) علي، ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥١)، وأبو المظفر السمعاني في «تفسيره» (٦/ ٢٧٩) ط:دار الوطن، وقال : خبر غريب. **قلت**: هو كذلك، ولا يصح مِن هذا شيء.

(٣) سبق بيانه. وانظر: «الدر المنثور» (١٤/ ٥٠٧).

(٤) سبق الجواب على أحد القولين في ﴿ثم ردَدْناه﴾. وهذا على القول الثاني فيها، ولا يزال في جواب السُّؤال المتقدِّم، وهو: هل هُناك تقارُب بين سُورة العصر، وسورة التين ؟.

سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العُمْر، وهو الهرم، والضعف بعد الشباب والقوة.

ولا بد على هذا التفسير مِن حمْل الاستثناء على الانقطاع، أي: (لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) **ووجه ذلك**: أنَّ الهرَم والردّ إلى أرْذَل العُمر يصابُ به المؤمن كما يُصابُ به الكافر، فلا يكونُ الاستثناء متَّصلًا.

ففي التفسير الأوَّل مرجِّحٌ؛ وهو : حملُ الاستثناء على الاتصَال الذي هو أصْلُه، وللتفسير الثاني -الذي هو تفسير الجمهور- مرجِّح وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فإنْ قلْت: هل يمكنُ حمْل الاستثناء على الاتّصال على مَا يطابق تفسير الجمهور؟.

قلت: يُمكن أنْ يُقال: إنَّ الردَّ إلى أسفل سافلين هو الردّ إلى حال ذهاب العقل وسقُوط القُوى، وذهاب الحواس على وجهٍ شديد بالغ إلى الغاية.

والغالبُ صيانة صَالحي العباد عن مثل ذلك، واللطفُ بهم عن البلوغ إلى هذه الغاية، فيكون الاستثناء على هذا (١٠:أ) متصلًا ويكون باعتبار الغالب، وذلك مشاهدٌ محسوسٌ عنايةً من الله -عز وجل- بأهل الصّلاح التام، والهدى القويم.

وقد وردَ ما يدلُّ على أنَّ المرادَ في هذه الآية هو التفسير الذي ذهب إليه الجمهور.

فأخرج ابن جرير[١]، وابن أبي حاتم، وابن مردويه[٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يقول: يُردُّ إلى أرذل العمر، كَبُر حتى ذهب عقله، هم نفرٌ كانوا على عهد رسول الله ﷺ حين سفَهِت عقولهم، فأنزل الله عُذرَهم أنّ لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم).

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/ ٥١٣) وسنده ضعيف، من طريق السلسلة العوفية المعروفة.

(٢) «الدر المنثور» (١٤/ ٥٠٧).

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير[١]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، [عنه أيضًا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾][٢] قال: (في أعدل خلق، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يقول: «إلى أرذل العمر» ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير منقوص، يقول: إذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحًا كُتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحَّته وشبابه، ولم يضرّه ما عَمل في كبره، ولم تُكتب عليه الخطايا التي يعمل بعدما يبلغ أرذل العمر)[٣].

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»[٤].

ويدلُ على التفسير الذي ذكرناه وجعلناه ثالثًا للتفسيرَين[٥] ما أخرجه الحاكم[٦] وصحَّحه، والبيهقي في «الشعب»[٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من قرأ القرآن لم

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/ ٥٤٨) وسنده ضعيف للعلة السابقة.

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) سبق أنه سنده عند ابن جرير ضعيف. وانظر: «الدر المنثور» (١٤/ ٥١٢).

(٤) البخاري (٢٩٩٦)، و«المسند» (٤/ ٤١٠)، والحديث أعلَّه الدارقطني بأنه مقطوع على أبي بردة قوله، لكن للحديث شواهد كثيرة، ذكر منها الحافظ في «الفتح» (٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦)، والمنذري (٤/ ١٤٧)، ومنها حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» (٢/ ٢٠٣) بسند صحيح ـ وهو في «الجامع الصحيح» (٢/ ٢٦١) أنَّ النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكَّل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقا حتى أُطلقه أو أَكفته إليّ**».

(٥) وهو: أن معنى ﴿رددناه أسفل سافلين﴾ أي الهرم الشديد، الذي تتلاشى معه القُوى.

(٦) في «المستدرك» (٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨) من طريق عاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس.

(٧) (٤/ ٢٣٤/ (٢٤٥٠) من طريق الحاكم، وظاهر سنده الصِّحة، لكن قال البيهقي عقبه: ورواه أبو الأحوص عن عاصم عن عكرمة من قولِهِ لم يرفعه إلى ابن عباس. **قلت:** =

يُردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين. إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: [«لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئًا»][(١)].

فإنْ قلتَ: قد تكلَّمتَ على مفردات هذه الآية، أعني قوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ولم تتكلَّم على مجموعها من حيث محلها، والغرضُ[(٢)] الذي سيقت له؟.

قلت: هي مبتدأةٌ قسميةٌ إنشائية لا محلّ لها من الإعراب.

وأما الغرض الذي سِيقت له فهو: ترهيب عباد الله سبحانه عن معاصيه، وإهمال ما أوجبه على عباده من الإيمان، والعمل. وترغيبهم في الإيمان[(٣)] وعمل الصالحات، وأنَّ ذلك هو الذي يكون به خروجهم من ظلمات الخسر إلى أنوار الإيمان والطاعة، فمَن ألقى السَّمْع وهو شهيد (١٠:ب) إلى هذا الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد جذبه ذلك إلى خير البداية والنهاية، ونعيم الدنيا والآخرة، ونجا من دركات الخسران، ووصل إلى درجات الجِنَان.

ومعلوم أنَّ العقلاء من هذا النوع الإنساني يطلبون الوصول إلى النعيم الأبدي، والعيش الهني الذي لا ينقطع ولا يفنى[(٤)]، لأنَّ نعيم الدُّنيا وإن بلغ في الحسن

أخرجه ابنُ أبي شيبة (١٠/ ٤٦٨)، وأخرجه أيضًا ابن جرير (٢٤/ ٥١٧) عن عكرمه قوله. لكن سنده ضعيف جدًّا، فيحتمل أنَّ زيادة ابن عباس وهم مِن الراوي جرى فيها على الجادَّة، ويحتمل أنَّ عِكرمة استفادَه من شيخه ابن عباس، والله أعلم.

(١) «الدر المنثور» (١٥/ ٥١٤)، وما بين المعكوفين آخر أثر عكرمة، ومكانه في أثر ابن عباس: «إلا الذين قرأوا القرآن»، والأثران على الصَّواب بتفصيل اللفظين في «الدر المنثور»، فلعله حصل انتقال نظر للمصنف عند النقل.

(٢) في ط: العرض !!.

(٣) في ط: وترغيبهم بالإيمان !!.

(٤) في ط: يغني !!.

والرفاهة إلى أرفع الرُّتَب وأعلى المنازل: فهو مكدَّر بأنه زائلٌ ذاهب، والانتقال عنه قريب وإن ظنّه مَن طاوع كواذب الآمال: بعيدًا.

وكلُّ عاقل يعلمُ أنَّ كلَّ نعيم يزول، وكلَّ نعمة تذهبُ؛ يكونُ حزنُها أكثرَ من سرورها، وغمُّها أعظم من الفرح بها[1]، وقد أحسن المتنبي حيث يقول:

أشدُّ الغم عندي في سرورٍ تيقَّن عنه صاحبُه انتقالَا

والآمال بأسْرها وإنْ طالَت ذُيولها، وبعُدَتْ مَراميها: فآخرها التقضِّي والذهاب، ولهذا أقول:

لا يغرَّنك طولُ عمرٍ فإنَّ لا ـ ـحَبْل يُطوى من ساعةِ

[الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ﴾]

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾. يُقال: أوصاه ووصَّاه يُوصيه: عهد إليه.

ومعنى التواصي: أنه أوصى به أولهُم آخرَهم، وهذا: ذاك. وذاك: هذا.

هذا هو المعنى اللغوي، والصيغة تدلُّ على الاشتراك في أصْل الفعل كما هو مقرَّر في علُوم اللغة العربية.

و ﴿**الْحَقِّ**﴾ في الشَّرع واللغة: ضد الباطل، وأصله الثبوت، من حقَّ الشيء: إذا ثبتَ. والمحِقّ ضد المبطل.

والمراد هنا: أنه وصَّى بعضُهم بعضًا بما يحقُّ القيام به، فيدخل التواصي بالإيمان وبالقيام بأركان الإسلام دخولًا أوليًّا.

ومن أهم أنواع التواصي بالحق: أنْ يتواصَوا في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، **ومن أهمها** أيضًا أن يتواصوا ببيان ما يَعرفُ بعضُهم مِن بعض أنه مرتكبٌ له واقعٌ فيه من المعاصي والمكروهات، ومَا يخالف ما يرضاه الله سبحانه ويحبُّه من

(١) في ط: لها!.

الأخلاق الصالحة والشمائل المرضيَّة فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينَهم أنفسهم.

ومن أعظم ما ينبغي (١١:أ) **التواصي به**: حفظُ اللسان من الغيبة والنميمة والسُّخرية والتنابز بالألقاب، فإنَّ هذه أمورٌ نهى عنها الكتاب العزيز ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ [الحجرات:١٢] إلى آخر الآية، ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم/ ١١]، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١] الآية.

وفي السُّنَّة المطهَّرة مِن النَّهي عن هذه الأمور، والنَّعي على فاعِلِها، والذمّ له ما يزجُر مَن له شيء من[١] إيمان، بعضه فضلا عن كله، و«**إنَّما يكبّ الناس على مناخرهم في جهنَّم حصائدُ ألسنتهم**»[٢] كما ثبت عنه ﷺ.

ومثل ذلك الكذب، بل هو أقبح من كلِّ ذنْب، وأشنع من كلِّ معصية، وقد ذم الله مرتكبه بما هو معروف، ونفَى عن فاعله الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [النحل:١٠٥] الآية، وورد في السنة المطهرة من ذم الكذب، والتنفير عنه ما هو معروف وكذلك[٣]، ورد في ذمّه من كلام الحكماء، ومواعظ الفصحاء ما يتَّعظ به كلُّ ذي عَقْل، ويُزْجَر به كلّ مَن له فهم. لما ينشأ عن هذه الخصلة السيئة القبيحة مِن مفاسد الدِّين والدنيا.

والحاصل أنَّ قُبحَه مما اتفقتْ عليه الشرائع، وتطابقتْ على ذَمِّه كتب الله المنزّلة على أنبيائه، واتحدت كلمةُ رسُل الله سبحانه على قُبْحه وقبح فاعِله.

---

(١) ساقطة من ط!.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجة (٣٩٧٣)، وانظر: «الإرواء» (٢/ ٤١٣)، ومسند أحمد (٣٦/ ٤٣٥).

(٣) في ط: معروف ذلك لك !!.

واعلم أنَّ لكلِّ مقام مقالًا، فينبغي للإنسان عند ملاقاة مَن له اشتغال بعمل من الأعمال أنْ يأخذَ في توصيته بما ينتفعُ به فيما هو بصدَده.

- فمَن[١] كان مشتغلًا مثلًا بالعلم، فينبغي أن يوصيَه **بحُسْن النية** أولًا، **ثمَّ بالاشتغال** بما يعودُ نفعُه عليه من الكتاب والسُّنة، وما يتوصّل به إليهما، ويُعين على فهْمِهما، وكيفية العمَل بهما ثانيًا، **ثم الإنصاف** وعدَم التعصُّب لمذهب من المذاهب ثالثًا، **ثم الإرشاد** إلى الردِّ إلى كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ عند الاختلاف رابعًا.

ثمَّ هكذا يأخذُ مع أهل كلِّ صِناعة بتوصيتهم بما ينتفعُون به في صناعتهم، ويحفظُون به دينَهم في مباشراتهم، فلا نُطيل الكلام في تعداد أهل الحرف، وأنواع أهل الأعمال (١١:ب) فإنه لا يخفى على الذَّكيّ الممارس للنَّاس[٢] العارف بقواعد الشَّرع ما يتعلَّق به النفع أو الضُّر لكلِّ طائفة من هذه الطوائف، فيأخذ معَ كلِّ طائفةٍ فيما يَهمُّها ويَخشى منه ضَررها، ويرجُو فيه نفعَها.

وبالجملة فهذه الآية : كما تدلُّ على ما ذكرنا؛ فقد دلَّ على ذلك الآيات والأحاديث الواردة في الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودلَّ على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]، وما وردَ في هذا المعنى من الآيات والأحاديث،وهو الكثير الطيب.

وقد ثبت في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**لا يُؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيْهِ ما يحبُّ لنفْسِه**»[٣]، فمَن فهم هذا الحديث حقَّ الفهم، وتدبَّره كُلِّيَةَ التدبُّر؛ عرَف ما يجبُ على أهل الأُخوة الدِّينية لبعضِهم بعضًا.

---

(١) في ط: لمن !!.

(٢) في ط: للباس !.

(٣) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حيث أنس رضي الله عنه.

فمعلوم لكلِّ عاقل أنَّ الإنسان يحبُّ لنفسه أنْ يكونَ في أعلى منازل الدِّين، وأرفع منازل الدُّنيا التي لم تُشَب بما يُكَدِّرها من الإثم وسوء التَّبعَة، وخطر العاقبة.

فإنْ وجدَ نفسَه أنه يُحبُّ لكلِّ فرد من أفرادِ مَن جمعتْه وإيّاه الأخوَّةُ الدِّينية أنْ يكون هكذا، فليفرُخ روعُه[١]، ولتقرّ عينُه، ويطمئنّ قلبُه، وينثلجَ صدْره.

وإنْ لم يجدْ مِن نفسِه محبَّة ذلك لأخيه فليَعْلم أنه مفرِّط في الأخوَّة الدينية، مفرِّط في إيمانه الذي لا يتمُّ إلا بذلك، بل لا يثبُت من الأصل إلا به، كما تدل عليه تلك العبارة التي تكلَّم بها الصادق المصدوق .

فإذا قلت: ما تقولُ في تفسير قتادة لهذه الآية بأنَّ المراد بـ﴿**الحق**﴾: القرآن[٢]؟.

قلت: أقول إنَّه قد اقتصر على رأس الحقّ وأسَاسه وأكملِه وأجلِّه وأجمِله، ولكن مِن الحقِّ أيضًا سُنة رسول الله ﷺ، ومن الحقِّ ما كان عليه السَّلف الصَّالح من الصَّحابة والتابعين من الهدي القويم، والخُلُق المبارَك فيما يتعلَّق بأمْر معاشهم ومعادِهم، وتعامُلِهم، وإن كان غالب ذلك هو في الكِتاب والسَّنة، فإنهم متخلِّقون بهما، متقيِّدون بما فهيما.

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها في وصْفها لرسول الله ﷺ إنه: «**كان خلقة القرآن**»[٣]، مع قوله عز وجل : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

فإن قلت: فما تقولُ فيما ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين أنَّ المراد بالحق المذكور في هذه

---

(١) في ط: فليفرِّجْ روعَه!!، وهو خطأ، يقال: أفرَخَ روعُه أي: ذهبَ فزعُه، وسَكَن واطمأنَّ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٦١٤)، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٣)، وسند ابن جرير صحيح. وحكاه الماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٣٣٤)، وهو ظاهر اختيار الواحدي كما في «الوسيط» (٤/ ٥٥١)، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

(٣) رواه مسلم (٧٤٦).

الآية هو : التوحيد[١]؟.

قلت: أقول إنَّ التوحيد هو الباب الذي (١٢:أ) لا يُدخَل إلى نور الإسلام والإيمان إلا منه، ولا يُخرج من ظلمات الكفر والضلال إلا به، وهو الفرقان بين أهل الإيمان، وأهل الكفران، وهو المقدَّم من أركان الإسلام، **ولكنَّه لا يتمُّ الإسلام به وحده!**.

ولهذا يقول ﷺ في الأحاديث الصحيحة الثابتة من طرق كثيرة في جواب من سألَه عن الإسلام: «**هو أنْ تشهدَ أن لا إله إلا الله، وتقيم الصَّلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»[٢].

فإذا كانَ الإسلام لا يتمُّ به على انفراده، فكيف يتمّ به الإيمان وعمل الصَّالحات.

فإن قلت: هاهنا شيءٌ يقوِّي تفسيرَ هذا القائل، وهو أنْ يُقال إنَّ الإيمان لَمَّا كان مذكورًا في هذه السُّورة قبل التواصي بالحقِّ، وكذلك لما كان عملُ الصالحات مذكورًا قبلَه : كان حملُه على التوحيد سائغًا مقبولًا؟.

قلت: إذا كان عملُ الصَّالحات مما يدخلُ فيه أركان الإسلام دخُولًا أوليًّا فقد دخَل التوحيد فيها من هذه الحيثية، بل دخُوله فيها مقدَّم على دخول سائر أركان الإسلام، لأنَّه بابها الذي يدخل منه إليها، ومفتاحها الذي لا يتيسَّر لأحد الوصُول إليها بدونه، فالتفسير لـ﴿الحق﴾ به لم يأت بفائدة لم يتقدَّم في هذه السُّورة ما يفيدها.

فإن قلت: هذا الالتزام مشترَك بينك وبين هذا القائل، فإنَّ عمَل الصالحات قد اشتملَ على التواصي بالحقِّ على الصُّورة التي فسَّرت الآية بها، لأنه مِن عمل

---

(١) حكاه الماوردي في«النكت والعيون» (٦/ ٣٣٤) عن يحيى بن سلام، وحكاه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥١) والبغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٢٥) عن مقاتل، وجعله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٣١٧) من جملة الحق، فقال: (وتواصوا بالحق) أي: بالتوحيد والقرآن واتباع الرسول اهـ.

(٢) تقدم تخريجه.

الصالحات؟

قلت: نعم هو مِن جُملة عمل الصالحات، وكذلك التواصي بالصبر، ولكنهما لما كان يكثُر الانتفاع بهما، ويتعاظَم الأثر الحاصِل عنهما كان ذلك وجهًا لإفرادهما بالذِّكْر، وذلك نكتةٌ مسوِّغة لمثل هذا كما صرَّح به أرباب «المعاني» و«البيان».

فإن قلت: لهذا القائل أن يسلُكَ هذا المسلَك الذي سلكْتَه، ويقول: إنَّ التواصِي بالتوحيد لما كان بالمنزلةِ التي هو بها حسْبما قدّمتَ ذِكْره؛ صلُح لإخراجِه من عُموم الصَّالحات؟.

قلت: هو وإنْ تمَّ له هذا فقد ارتكَبَ خلاف ما يدلُّ عليه اللفظ، فإنَّ قَصْرَ ﴿الحق﴾ على التوحيد؛ لم يدلّ عليه هذا اللفظ القرآني (١٢:ب) بوجهٍ من الوُجوه المعتبرة.

فالأولى ما قدَّمنا ذِكْرَه من دخول التوحيد تحت الأعمال الصالحة دخولًا أوليًّا.

وحَمْل التواصي بالحقِّ على ما ذكَرْنا، فإنَّ ذلك هو الذي يُفيده المعنى العربي الذي يجب علينا تفسِير كتاب الله سبحانه به.

فإن قلت: هاهنا إشكال آخر، وهو أنه إنْ حُمل التواصي بالحقِّ على العموم؛ لم يكُن في قُدْرَةِ أحدٍ من العباد ذلك، وإنْ حُمل على الإطلاق الصَّادق على البعض فما هو؟.

قلت: هو محمُولٌ على البعض الذي يحقُّ التواصي به كما قدَّمنا بيانه فلا إشكال.

[الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ﴾]

قوله: ﴿**وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ**﴾: الصَّبر ضد الجزَع. والمراد به هنا: **الصبر على المكاره التي تعرض للعبد في بدنه أو أهله أو ماله**. فإنَّ مَن صبرَ على ذلك لكونه مِن قدر

الله، وما قضى به عليه؛ كان[1] ذلك صبرًا محمُودًا.

ومنه الصبر عن معاصي الله عز وجل، والصبر على ما يقوم به من فرائضه من المداومة عليها وإيقاعها على الوجه المأمور به، ولا سيما ما كانَ يحتاج العامل به إلى مشقَّة كالجهاد، والحج، وبعض أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: ما وجه تخصيص التواصي بالصبر بالذكر مع دخوله تحت التواصي بالحقِّ بعد دخولِه تحتَ عمل الصالحات؟.

قلت: وجه ذلك أنَّه لما كان الصبر بمنزلةٍ عظيمة، ورتبةٍ فخيمة -كما يفيد ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] - كان إفرادُه بالذِّكْر بعد دخوله تحت ما قبله: **دليلاً على ارتفاع درجته**، ومزيد شرفه، كما هو النكتَةُ لذكْر الخاص بعد اندراجه تحت عُموم متقدِّمٍ عَليه، أو متأخِّرٍ عنه.

فإن قلت: قد ثبت في الكتاب العزيز قوله عز وجل : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وهذا يفيدُ أنه مع جميع عباده؟.

قلت: هذه معيَّة عامّة، والتي معَ الصابرين معيَّة خاصَّة دالة على أناقة هذه الخصْلة على كل الخصال، وأي فضيلة تداني فضيلة مَن كان الله مَعَه!، وأي مزيَّة توازي مزيَّة مَن هو مِن أهل هذه الطبقة الشريفة، والمنزلة السَّامية!.

ومِثل هذه المعيَّة الخاصَّة قولُه عز وجل: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، فمَن جمع بين التقوى والإحسان استحقَّ هذه المعية الفاضلة، والمنقَبة العالية (١٣:أ).

وقد وردَ في شرف الصَّبر ومزيد فضْله من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية

---

(١) في ط: كأن!.

ما لو جُمِعَ لكان مؤلَّفًا مستقلًّا[١].

فإن قلت: متى يحقُّ التواصِي بالصَّبر؟.

قلت: يحق إذا رأى الإنسان مِن أخيه : جزَعًا مِن أمرٍ قد أصابه، أو مِن حاجَة قد نزلتْ به، أو مِن قريْب قد فارقَه أو دنَا فراقه، أو مِن عدوٍّ قد جاهرَه بالعداوة، أو نحو ذلك.

فيذكُر له أنَّ هذا الجزَعَ لا يفيدُ شيئًا، ولا يدفُع مكروهًا، ولا يردُّ فائتًا، وليس له فائدةٌ إلا مجرَّد فوت ثواب المصيبة، مع ضمِّ مصيبة الجزع إلى مصيبة ما وقع الجزع لأجله.

ويبيِّن له أنَّ تعذيب الإنسان نفسَه بالهمِّ والغم -فيما لا يُمكن دفعه، ولا يقدر العبد على استدراكه- شعبةٌ من الجنون.

وما أحسن قول الشاعر:

أرى الصبر محمودًا وعنه مذاهبٌ كيف إذا مَا لم يكنْ عنه مذهبُ

هناك يحقُّ الصبرُ والصبرُ واجبُ وما كان منه للضرورة[٢] أوجبُ

وقد اتفقَ العقلاءُ جميعًا مُسلمُهم وكافرُهم على أنَّ الجزعَ لأجْل أمرٍ قد فاتَ وتعذّر استدراكُه: قبيحٌ عند جميع العقلاء.

لأنّه **تعذيب للنفس** فيما لا يُمكن رجوعه، ولا يُرجى إدراكه، فهو مفسدةٌ خالصة خاليةٌ عن النفع بوجه من الوجوه، فلا فرق بينه وبين مَن يضربُ نفسه بشيءٍ يؤلمه، لا لسبب يقتضِي ذلك، ولا لِعلَّة تُوجبه، بل عبثًا ولَعبًا، **بل ضررُ الجزعِ أشدُّ**، فإنَّ أهل الطبِّ اتفقوا على : أنه يضرُّ بالأبدان ضررًا شديدًا ويتولَّد بسببه

---

(١) قد جمع ابن القيم في هذا كتابا عظيما بعنوان: «عِدَةُ الصابرين» مطبوع مرارا.

(٢) في ط: للضراوة !!.

العلل الصَّعبة الشديدة التي يصعبُ الخلوص عنها بالأدوية.

وما أحسن قول القائل:

(ولا يردُّ عليكَ الفائتَ الحُزنُ[1])

فإن قلتَ: قد دل ذلك النظمُ القرآني على أنه لا مخرَجَ مِن الخُسر اللازم لكلِّ إنْسان إلا بما ذُكر بعد حرْف الاستثناء من: الإيمان وما عُطِف عليه من عَمل الصَّالحات ومِن التواصي بالحقِّ والتواصي بالصَّبر.

مع أنَّ مثل: التواصي بالصبر -على الصِّفة التي ذكرناها- ليس بواجب، وغايته أنه من آكدِ المندوبات، ومن أفضل ما يُؤجر عليه الإنسان من الصالحات، **ولكنه لا يوجبُ تركه البقاء في الخسر**؟ ولو أوجبَ ذلك؛ لكان واجبًا لا مندوبًا، ولم يقلْ أحدٌ من أهل العلم (١٣:ب) بأنه واجبٌ على تلك الصِّفة، بل مِن الموعظة الحسَنة والدعاء إلى الخير الخالص؟.

قلت: لا شك أنَّ بعض التواصي بالصَّبر واجب، وذلك حيثُ يكون الصبرُ واجبًا متحتّمًا على صاحبه، والجزعُ حرام عليه، وذلك كالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على طاعاته الواجبة، **فإنه يجب على كل مسلم الصبر على ذلك**، وعدمُ الوقوع فيما يؤدي إليه ترك الصَّبر: من الإقدام على معاصي الله والوقوع في المحرَّمات، وما يؤدي إليه ترك الصبر على فرائض الله: من الوقوع في الإخلال بها، والإهمال لما تحتّم عليه القيام به منها.

فإنه إذا كان الأمْر هكذا وجبَ على مَن علِمَ ذلك: الأمر له بالصَّبر مِن باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان عند وجود سَببهما المفضِي إلى ترك ما يجب، وفعل ما يحرُم، ولا إشكال في مثل هذا.

---

(١) «خزانة الأدب وغاية الأرب» (١/ ٢٠٤)، وأوله فيه: (فما يُديمُ سرورًا ما سُرِرْتَ به).

وهكذا التواصي بالحق : يُحْمَلُ على النوع الذي يجبُ منه.

وذلك إذا كان قد **وقع الإخلال بما يجب التمسُّك به من الحق** الذي يحقُّ على كل مسلم القيامُ به، فإنه حينئذٍ يكون **التواصي بلزومه والتمسُّك به واجبًا** على كل مسلم، لأنه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان عند عُروض سببهما المفضي إلى ترْك ما يجب، وفِعْل ما يحرُم كما قدَّمنا.

وهكذا عمل الصالحات: فإنه يُحمل على مَا يجبُ فعله منها، أو يستلزمُ تركها الوقوعَ في محرَّم من المحرمات.

هكذا يجابُ عن ذلك الإشكال.

وإن كان التواصي بالحق والتواصي بالصبر مشروعين لكلِّ مسلم في كلِّ حال، وعلى كلِّ وجْه، وفاءً بحقِّ العُموم الذي أرشدَ إليه الكتاب العزيز، وجاءت به السنة المطهرة.

فالحاصل أنه يَخرجُ العبدُ عن الخسر : بالقيام بما يجب عليه من عمل الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ويحسُن منه ويُندَب له : أنْ يقومَ بإرشاد أخيه إلى الحقِّ والصَّبر في كلِّ مَوطنٍ من المواطن التي يكون الإرشادُ إليها حسنٌ جميل، فإن ذلك من باب النصيحة التي يقول فيها الصادق المصدوق ﷺ: «**الدين النصيحة**»(١).

وأنت خبير بما يفيده هذا التركيب المصطفوي من الحصر الدال على المبالغة في شأنها (١٤:أ)، وأنها هي الفَرد الكامل من أفراد الدِّين.

بل قد جعلها الشارعُ مِن حقِّ المسلم على المسلم، كما ثبت في «الصحيحين»(٢) وغيرهما أنَّ : «**حقَّ المسلم على المسلم إذا لقيه أن يسلم عليه، وإذا عطس أن يشمته،**

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، عن تميم بن أوس الداري.

(٢) البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا دعاه أن يجيبه، وإذا مرض أن يعوده، وإذا مات أن يتبعه»، «وإذا استنصحه أن ينصحه»[(١)].

فالتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر: شعبةٌ من شُعب النَّصيحة، ونوعٌ من أنواعها، وكما يكونُ فيهما ما هو واجب؛ كذلك يكون في أفراد النصيحة ما هو واجب.

فإن قال -مَن يتقيَّد بعلْم الأصول، ويمشي على طرائقه-: إنَّ هذا مِن باب الجمع بين الحقيقة والمجاز، وهو لا يجوز؟.

قلنا له: نحن نمنع أنْ يكونَ هذا مِن الجمع، بل هُو من العَمل بما يُفيده اللفظ، وتقتضيه الصِّيغة، والاقتصار على البعض لدليل اقتضى ذلك.

ولو سلَّمنا : فنحن نمنع -معهُ أيضًا[(٢)]- عدمَ الجواز فيما نحنُ بصدده، فإنه يمكن أن يُراد معنىً يشملُهما ويعبّر به عنهما، فيكون ما ذكرناه: مِن عُموم المجاز، لا من الجمْع بين الحقيقة والمجاز[(٣)].

على أنه يُمكن أنْ يُقال: إنَّ ذلك مِن الجمْع بين معنيي المشتَرك، وهو سائغٌ مقبول

---

(١) الذي في الصحيحين خمس خصال وهي المتقدِّمة، وأما هذه الخصلة السَّادسة فانفرد بها مسلم في رواية، بعد الرقم المشار إليه.

(٢) أي: مع تسليمنا بما ذكره من منْع الجمع بين الحقيقة والمجاز. وهو مذهب الأقل، والجمهور على الجواز مثاله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ يحمل على الحقيقة وهو ولد الصلب، والمجاز وهو ولد الابن. هذا للإيضاح وإلا ففي المجاز من أصله بحث ليس هذا موضعه.

(٣) قال المؤلف في «إرشاد الفحول»: «وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي مَعْنًى مجَازِيٍّ، يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ المَعْنَى الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ عُمُومَ المَجَاز».

على ما هو المذهب الحقّ[١] من تلك المذاهب المدوَّنة في الجمع بين معنَيي المشترك.

وهكذا يُقال في قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾، وهكذا يُقال في «النَّصيحة».

فإن قلت: هذا التواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر إذا كان معَ من يقبلُ ذلك، ويَنْعمِل له فهو شأن المؤمنين مع بعضهم البعض، وديدنهم وهجِّيراهم، **وربما كان بعضهم لا يقبل ذلك، ولا ينعمل له، ولا ينقاد** لمن وصَّاه بالحق، ووصاه بالصبر؟.

قلت: الكلام هنا مع أهل الإيمان، ولهذا عُطِفَا على الذين ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بالحرف المقتضي للجمع بين المعطوف والمعطوف عليه.

وشَأن أهل الإيمان قبولُ ذلك، والانْعِمَال له، والانقياد لقائله، وشُكْره على ذلك، والدُّعاء له.

وأمَّا ما ذكرتَ فهو مِن أخلاق الجبابرة، وجُفاة المنتسبين إلى الإسلام، فلسْنَا بصدد الكلام معهم.

لكن إذا كان التواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر واجبًا على الصِّفة التي قدَّمنا فقد عرَّفناك أنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤:ب) وهو واجب على كل مسلم لكلِّ مَن ارتكب محرَّمًا، أو ترَك واجبًا ، فعليه أنْ يقوم بعرْضِه، ويصكَّ به وجهَ مَن استحقَّه، ويُرغِم به أنْفَه.

فإن قَدَر على أنْ يحملَه على ذلك شاءَ أم أبى فهو الواجبُ على مَن وجدَ من نفسِه قوةً على ذلك، وإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن ينكره بلسانه.

وإن بلغ في الضعف إلى حدٍ يعجز عن الإنكار باللسان، أو يخشى على نفسه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه : **ففي الإنكار بالقلب رخصةٌ له**، لما ثبت عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) المشترك عرّفه المؤلِّف بأنه: اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلِفتين أو أكثر وضعًا أولًا من حيث هما كذلك. ورجّح في «إرشاد الفحول»: منع الجمع. وهنا رجَّح الجواز، وهو الأصحّ وهو ترجيح شيخ الإسلام، والعلامة الشنقيطي. ولتحريره غير هذا الموضع.

«**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[١].

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ينكرونَ ما عَلمُوه منكرًا بأفعالهم وأقوالهم، ويكافحون بذلك الملوكَ والأمراء.

اللهم غفْرًا، اللهم غفرًا، اللهم غفرًا للمقصِّرين من عبادك في القيام بهذه الخصْلة التي هي أبْيَن دين الإسلام، ورأس قواعده، وأعظم ما يحفظ به هذه الشريعة المطهرة عن انتهاك العصاة، وتلاعب المتمردين.

وهاهنا مفسدة عظيمة تُركَ بها كثير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصارت ذريعةً شيطانية للمداهنين في دين الله، **وهي: ما وقع في بعض كتب الفروع من جَعْل ظنَّ التأثير شرطاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وهذا شرط لم يدلّ عليه كتاب الله، ولا سُنّة رسوله، فهو تمسّك بالهباء، وتعلُّلٌ بما هو على شفَا جُرُفٍ هارٍ.

ومع هذا فإنهم يجعلون ذلك تعِلّة لهم وعُذرًا، وهم يعلمون أنَّ التكلُّم بالحق، وبما أمر الله به، وأرشد عباده إليه لا يستطيع أحد ردَّه كائنًا مَن كان، وإنْ بلغ في التمرُّد عن الحق، والتجبُّر في الدِّين إلى حدٍّ يقصُر عنه الوصْف.

فإنه إذا سَمع ذلك فغايته أن يذكر لنفسه المعاذير والعِلَل المعتلَّة، وقد وقع في قلبه ما وقَع، واستحى من الناس أن يتظهَّر بذلك أو يتجاهَر به، وهذا أقلُّ ما يحصُل معه.

فمَـا ذكرهُ مَن يحقُّ عليه القيام بذلك أنه ظنَّ عدم التأثير : فهو كاذبٌ على نفسه، كاذبٌ على ربِّه، كاذبٌ على عباد الله الصَّالحين، فمالك -لا كثّر اللهُ في عباده من أمثالك- ولِلْاستِدْلال لما أنت فيه من الدِّهان، والسُّكوت على المتجرِّئين على

---

(١) رواه مسلم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

معاصي الله، المنتهكين لحُرُماتِه، المتعدِّين لحدوده بهذا الدليل الباطل مِن:

وجهه الأوَّل (١٥/ أ) : أنه غلطٌ من قائله، باطل من أصله.

الثاني: أنَّ ما تزعُمُه من الظنِّ الحاصل لك هُو مِن بناء الباطل على الباطل، وترتيب المختلّ على المختلّ، فإنْ كنتَ لا تعلَم بالوجه الأول فاعلمْه الآن، فإنَّ تقصيرَك في عِلْم الشرع أوقعَكَ في تقليد مَن قال بالباطل.

وأما الثاني : فأنت تعلمُه من نفسك، فإنْ شكَكْت في ذلك فافعل ما أمرك الله به من الأمر بالمعروف عند عروض ذلك الظنّ الشيطاني لك، حتى تعلمَ فسادَه، وتتَيقَّن بطلانه، ويُسفِرَ صبح هدايتك، ويطلُعُ بدرُ رشادك، ولكن عليك قبل ذلك بمَرهم نافع، وترياق شاف، **وهو: أنْ تحسِّن النية، وتوطِّن نفسَك على أنك لم تفعَلْ ذلك إلا للوفاء بما أوجبه الله عليك**، وأخذه على أمثالك، واغسِل عن قلبك محبة أن يُقال: قال فلان بالحقّ، تكلَّم بالصواب، أنكَر المنكر، قامَ بما أمره الله به.

فإنَّ هذه الوساوس الشيطانية، والخواطر الخذلانية تكون سببًا لعدم تأثير ما جئتَ به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد تظنُّ عدمَ تأثير ما جئْتَ به لا لهذا السَّبب فتقول بعد ذلك: لا أظنُّ التأثير.

وإذا عرفتَ العلَّة؛ علمْتَ أنَّ للتكلُّم بالحقِّ تأثيرًا في كل العباد، وعلى كل معاند ومتمرِّد كائنًا من كان.

وسأقُصّ عليك واقعةً صحيحةً اشتملت عليها كتب التاريخ المعتبرَة، وهي: أنَّ بعضَ صُلحاء العباد القائمين بما أوجب الله عليهم مِن هذا التكليف رأى عشرة آنية مملوءَةً خمرًا مع بعض خدم الملوك، يريد أنْ يوصِلَ ذلك إلى المِلك، وقد سافر به من أرض بعيدة، فأخذ عصَاهُ، ثمَّ ما زال يضربُ تلك الآنية بها حتى كسَّر تسعةً منها، ثمَّ وقف على العاشر فأمسكَ العصَا ولم يكسرْه فبمجرَّد ما فعل ذلك ذهبوا به إلى الملك، وقالوا: فعَل وفعَل، وقد ظنُّوا وظنَّ مَن هو مشاهدٌ لذلك أنه سيُقتل،

فأوصلُوه إلى الملك فارتجف لعصَاته، واضطربَ حالُه، وعرَّاه مِن الهيبة ما لا يُقدّر قدرُه، وغاية ما وقع منه أنه قال له: لم فعلتَ هكذا؟.

قال: لأنَّ اللهَ سبحانه حرَّم ذلك، وأوجبَ على عباده إنكاره وتغييره.

فقال له (١٥/ ب) فلأي سبب تركت واحدًا منها ؟.

قال: لما كسرتُ التسعةَ أدركتُ في نفسي شيئًا مِن العُجب فتركتُ ذلك لئلا أكسره وقد انضمَّ إلى تلك النية هذا الخاطر القبيح.

فلم يقلْ له شيئًا، وخرج سالـما، وقام بما أمره الله سبحانه به.

وكَم وقع من التأييد الرباني، والنصر الإلهي لكثير من القائمين بهذا الواجب العظيم، وقد اشتملت عليه كتبُ التاريخ، فمَن كان له نظر فيها فهو عالم بذلك غير محتاج إلى التنبيه عليه.

وفي هذا المقدار كفايةٌ لمن له هداية، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[فرغَ منه مؤلِّفُه محمد بن علي الشوكاني -غفر الله لهما- في نهار السَّبت لعله سادس عشر شهر شوال ١٢٣٧هـ]

الفهرس الإجمالي

المقدمة ١
جهود العلماء في علم التفسير ٣
تفسير سور مخصوصة منفردة ٤
وصف المخطوط ٧
مجمل عملي في الرسالة: ٧
نماذج من المخطوط ٨
ترجمة موجزة للشوكاني ١٠
[مقدمة المصنف] ١٣
تفسير سورة العصر ١٤
[عدد آياتها، وهل هي مكية أو مدنية] ١٤
[تعظيم السَّلف لهذه السورة] ١٤
[الكلام على البسملة وهل هي آية أم لا] ١٧
[تفصل القول في إعراب ومعنى (اسم) من البسملة] ١٩
[الكلام على لفظ الجلالة (الله)] ٢١
[الكلام على «الرحمن» «الرحيم» من البسملة] ٢١
[ما ورد في فضل البسملة] ٢٢
[الشروع في تفسير السورة] ٢٤
[الأقوال في معنى العصر، وبيان الراجح، وتوجيه القسم به] ٢٤
قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ ٣٤
قوله تعالى: ﴿إِلَّا الذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾ ٣٧
[أهمية الإيمان بالقدر وفوائده] ٣٩
[أهمية الدعاء، وفوائده] ٣٩
[الكلام على قوله: ﴿وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ﴾، وبيان أهمية العمل في الإيمان] ٤٥
[الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ﴾] ٥٤
[الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ﴾] ٥٩
الفهرس الإجمالي ٦٩